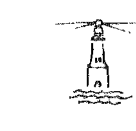
الدكتور أحمد محمد الحوفى

لغويات جديدة



دار المعارف



الدكتور أحمد محمد الحوفي

لغويات جديدة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كانت فى الدكتور أحمد الحوفى خصال كريمة تحبّبه إلى أصدقائه وزملائه المجمعيين ، إذ كان حلو الشمائل والسجايا . وكان يفرغ للحياة العلمية الخالصة ، مما جعل إنتاجه يتكاثر فى الأدب العربى قديما وحديثا ، وفى دراسات القرآن وإعجازه البلاغي الباهر ، وفى أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وما قدمت - وتقدّم - إلى أجيال الأمة من سلوك فاضل رفيع ، وفى مثل الإسلام القويمة وما منحت - وتمنح - تلك الأجيال من هدى ورشاد

وكان الدكتور الحوفى كثيرا ما يتخيّر لمؤتمر المجمع ألفاظا أو أساليب فى الذكر الحكيم وقد يتخيّر لفظا جرى على لسان الرسول كلفظ الأريسيين فى كتابه إلى هرقل ، وكان لا يزال يدرس ما يتخيره من ذلك ، ويتعمق درسه ، محاولا بكل ما وسعه أن ينفذ إلى دلالته الدقيقة . وكنت أزامله فى لجنة الألفاظ والأساليب بالمجمع، وكانت تُعْنى بالمعاصر المستحدث من تلك الأساليب والألفاظ مما يدور فى الصحف وفى كتابات بعض الأدباء ،ويُظَنّ أنه ناب عن قواعد الفصحى ، حتى إذا أنعم النظر فيه أحد أعضاء اللجنة ووجه له ما يسوّغه عرض رأيه على زملائه مشفوعا بمسوّغاته ، ليجيزوه ، وبمجرد أن يوافقوا عليه تعرضه اللجنة على مجلس المجمع ومؤتمره ،ويُصْدر فيه قرارا بدخوله فى دوائر الفصحى ومعاجمها المعاصرة ، وكان الدكتور الحوفى من أكثر أعضاء تلك اللجنة نشاطا فى التقاط هذه الأساليب والألفاظ التى يتبادر إلى الظن أنها عامية ، وسرعان ما يردها إلى محيط الفصحى بمهارته اللغوية .

وهذا الكتاب الذى يسرنى أن أقدّمه إلى القراء يجمع طائفة من بحوث الدكتور أحمد الحوفى المجمعية الطريفة فى الاتجاهين السالفين ، وهو موزع بينهما فى

قسمين : قسم أودع فيه بحوثه فى ألفاظ وأساليب فى القرآن الكريم ولفظ فى خطاب الرسول عليه السلام ، إلى هرقل كما أسلفنا . وكانت هذه البحوث دائما موضع إعجاب زملائه المجمعيين . وقسم ثان فى الكتاب جعله للألفاظ والأساليب التى تتداولها الكتابات المعاصرة ويظن أنها لا تتصل بنسب إلى الفصحى ، فإذا هو يوجد لها لُحْمتها ووشائجها التى تصلها بها ، وكانت له حاسة لغوية دقيقة تجعله يعثر دون عناء على هذه الأساليب والألفاظ ويثبت لها نسبها الصحيح إلى الفصحى وتصاريفها واشتقاقاتها المتنوعة ، وفى الكتاب من ذلك أمثلة كثيرة مثل :

الماء الفاقد بمعنى المفقود - الملابس الجاهزة - التسعيرة الجبرية بمعنى الإجبارية - العمالة الزائدة إى العمال الزائدون - مناورة فى قولهم : قام الجيش بمناورة حربية - عَمْرة فى قولهم : المنزل محتاج إلى عمرة - منضدة بفتح الميم بجانب منضدة بكسرها - أمسية بتخفيف الياء - مَسْح فى مثل قولهم مَسْح شامل للأسعار. وكان الدكتور أحمد الحوفى مايزال يعرض مثل هذه الألفاظ والأساليب التى يُظَن أنها ليست من الفصحى فى شىء فإذا هو يثبت بالدليل القاطع أنها فصيحة تامة الفصاحة . ولعل فى كل ما قدمت من بحوثه اللغوية المتنوعة ما يصور مدى خسارة العربية فيه ، جزاه الله خير الجزاء عما قدَّم للغته وأمته .

د . شوقى ضيف

تمهيد

أما بعد ..

فهذه بحوث لغوية ألقيتها فى مؤتمرات مجمع اللغة العربية منذ سنة ١٩٧٤ م إلى سنة ١٩٨٢ م ، ويسرنى أنها كلها حظيت بثناء الأساتذة الزملاء وتقديرهم .

وتلك كلمات مفردات ساهمت بها فى لجنة الألفاظ والأساليب بالمجمع ، وتناقشنا فيها طويلا ، ثم أحالتها اللجنة بعد الموافقة عليها إلى مجلس المجمع ، ثم إلى المؤتمر العام ، فكان من دواعى غبطتى أنه أقرها أيضًا .

ولقد اقترح علىَّ صديقى وزميلى الكريم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف مرات متعددة ، أن أجمع ما أستطيع جمعه من بحوث وكلمات ، وأن أنشرها فى كتاب ، تسجيلا لعمل علمى قمت به ، وتعريفًا ببعض جهود مجمع اللغة العربية ، ونفعًا للقراء .

وكان فى كل مرة يزيد على اقتراحه ما يحببه إلى النفس ، ويسارع بالمبادرة إلى قبوله ، فيعرض فى كرم أن ينهض هو بنشر الكتاب ، وبكتابة المقدمة له ، وأن يعفينى من كل مايتعلق بالنشر .

وهذا لون جديد من ألوان التعاون الأدبى يستنُّه الدكتور شوقى ضيف ، بخلقه الطيب ، وقلبه الكبير ، وإخائه الوفىّ .

وإنى لسعيد أيما سعادة ؛ إذ استجيب لاقتراح أخى الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، وأن أفوض إليه نشر الكتاب بالطريقة التى يراها ، وتقديمه بقلمه الرَّيان ،ومنهجه الفَيْنان ، ومكانه المرموق .

والله الهادى إلى سواء السبيل .

أحمد الحوفى

« الأمى والأميون » فى القرآن الكريم*

هذه دراسة خالصة مخلصة ، لايحق لأحد أن يتعسف فيحملها ظنًّا تخفيه أو يحمل نفسه ظنًّا يخفيه أو يجهر به . ولا علاقة لها بأن النبى ﷺ كان لايقرأ ولايكتب ، فقد حسم القرآن الكريم هذا حسمًا لايدع مسربا لشك بقوله تعالى :

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذًا لارتاب المبطلون ﴾ .

(سورة العنكبوت ٤٨)

إذا أردنا أن نتعرف معنى كلمتى (أمى وأميين) فى القرآن الكريم فعلينا أن نتبين معرفة العرب أو جهالتهم بالكتابةوالقراءة ، وأن نستأنس بالمعاجم اللغوية متدرجين من قديمها إلى حديثها . وأن نتفهم ما ذكره كثير من المفسرين فى معنى هاتين الكلمتين ، ثم نعقب على هذا كله لعلنا نهتدى إلى رأى نطمئن إليه .

---

* ألقى البحث فى الجلسة العاشرة لمؤتمر المجمع اللغوى بالقاهرة فى ٩ / ٣ / ١٩٧٤ .

أولا : العرب والقراءة والكتابة

كان الينبوع الأول لعلم العرب فى العصر الجاهلى الملاحظة والمخالطة والتجربة ، وكان بعضهم يتميز بلون من المعرفة يشتهر به ، فقد كانوا بداة ، والبداوة طور اجتماعى طبيعى تجتازه الأمم فى سيرها إلى الحضارة ، ومن شأن البداوة ألّا تتيح للبداة دراسة منظمة ، ولا تفكيرًا متفلسفًا ، ولا تعمقًا فى الربط بين الأحداث وأسبابها والمعلولات وعللها ، فإذا جاءت حكمة على لسان أحدهم فهى نتاج طبعه ، وخطرة من فكره .

وبديهى أننى لاأعنى بالعلم أو الثقافة أو المعرفة ، أن العرب كانت لهم علوم ذات أصول وقواعد ، لأن طور البداوة يناقض ذلك ، بل أعنى المعرفة التى تستمد من الحواس ومن البيئة ومن الأحداث ، كالذى قاله ابن خلدون فى طب الجاهلية : « وللبادية من أهل العراق طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثًا عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان منهم أطباء معروفون ، كالحارث بن كلدة وغيره[1] .

فهل كان العرب فى الجاهلية يعرفون الكتابة والقراءة ؟

أو كانوا كما أشيع عنهم لايكتبون ولا يقرءون ؟

الحق أن العرب البداة كانوا يجهلون الكتابة والقراءة؛ لأن حياتهم البدوية باعدت بينهم وبين أن يكتبوا أو يقرءوا ، وهذا شأن البداة فى كل الأمم .

أما أهل الحضر فقد عرف بعضهم الكتابة والقراءة قبل مشرق الإسلام ، فكان فى الطائف وفى مكة وفى يثرب قراء وكتاب ، وكان فى الحيرة من يكتب ويقرأ ، وكان فى الشام عارفون بالقراءة والكتابة ، وكان باليمن من يكتبون

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١١٠٩

ويقرءون ، وكان من قريش وغيرها تجار يضربون فى الأرض إلى شرقى مصر وإلى الشام وإلى العراق وإلى الحبشة ، ومن شأن التجارة أن تستدعى الكتابة والحساب فى عدد من التجار .

فهل لدينا أدلة على هذه المعرفة ؟

نعم ، نستطيع أن نعتمد على أدلة كثيرة :

١ - فقد وجدت كتابة عربية فى جنوبى الجزيرة العربية من عهد دولة مَعين وسَبأ وحمير ، وجمع المنقبون منها مئات الألواح والصور .

كما أن العرب كتبوا على قبة قصر غمدان ، وعلى عمود مَأرب ، وعلى ركن حِصْن المشَقَّر ، وعلى الأَبْلَق الفَرْد[١] .

٢ - وردت أخبار شتى عن معرفة أهل الحيرة للكتابة ، منها أنهم كانوا يعلِّمون أبناءهم الكتابة فى الصغر ، كما تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة من أمه بعد مقتل أبيه ، فخرج من أكتب الناس ، وصار كاتب النعمان الأكبر ، ثم ولد له ابن سماه زيدًا باسم أبيه .

وكان لحماد هذا صديق من الدهاقين العظماء اسمه فروخ ماهان ، وكان محسنًا إلى حماد ، فلما حضرت الوفاة حمادًا أوصى بابنه زيد إلى الدهقان ، وكان من المرازبة ، فأخذه عنده مع ولده ، وكان زيد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يصير إلى الدهقان ، فلما أخذه علمه الكتابة الفارسية فأجادها ، وتولى كتابة البريد بالعربية لكسرى زمانًا[٢] .

كذلك تعلم عَدِيٌّ بن زيد العبادى الكتابة فى كتّاب عربى ثم فى كتّاب فارسى ، وصار من أقدر الناس على الكتابة بالعربية والفارسية ، وكتب فى ديوان كسرى[٣] ، ثم كتب لكسرى ابنه زيد من بعده[٤] .

---

(١) الحيوان للجاحظ ١ / ٦٨ غمدان : قصر بين صنعاء وطيوة . مأرب : سد بين صنعاء وحضر موت . المشقر : حصن بالبحرين . الأبلق الفرد : حسن السموءل بتيماء .

(٢) الأغانى ٢ / ١٠٠ الدهاقين : جمع دهقان وهو التاجر . المرازبة . جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك .

(٣) الأغانى ٢ / ١٠١

(٤) الأغانى ٢ / ١٢١

وكذلك تعلم المرقش الأكبر هو وأخوه حرملة الكتابة من نصرانى بالحيرة ، ولهذا كان المرقش يكتب شعره[١] .

وكان لقيط بن يَعْمُر الإيادى يعرف الكتابة العربية والفارسية[٢] .

وفى هذا الإقليم دوّن بعض العرب تاريخهم فى الجاهلية ، فقد ذكر هشام ابن محمد الكلبى أنه كان يستخرج أخبار العرب، ويستخرج أنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من ولى منهم لكسرى ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة[٣] .

وفى الإقليم نفسه دوّن بعضهم الشعر ، فقد ذكر أبو جعفر النحاس أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : علقوا لنا هذه ، وأثبتوها فى خزائنى ، وذكر ابن رشيق مثل ذلك[٤] .

وأرجح أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر ، لأن ابن سلام يقول : وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، ثم صار هذا الديوان أو مابقى منه إلى بنى مروان[٥] ، ولأن ابن جنىٍّ يقول : أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج – الكراريس – ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عبيد الثقفى قيل له إن تحت القصر كنزًا ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار[٦] .

٣ – لم تكن معرفة القراءة والكتابة مقصورة على اليمن والحيرة والشام ، فإن بعض الحجازيين عرفوها ، لأنه لما أشرق الإسلام كان فى قريش وحدها سبعة عشر رجلا يكتبون ، ذكر البلاذرى أسماءهم[٧] .

---

(١) الأغانى ٥/ ١٨١ والشعر والشعراء ، ٥٥ وشرح المفضليات لابن الأنبارى ٤٦٠

(٢) بلوغ الأرب ٣/ ٣٧٠

(٣) تاريخ الطبرى ٢/ ٣٧

(٤) العمدة ١/ ٦١٠

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٣

(٦) الخصائص ٣٩٣

(٧) فتوح البلدن للبلاذرى ٤٧١ وعيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٤٣ والمعارف لابن قتيبة ٢٧٣ وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٦٠ والمزهر للسيوطى ٢/ ٣٥١

وذكر ابن سلام أن الناس اجتمعوا يومًا بمكة ، فوجدوا على باب دار الندوة هذين البيتين :

ألهى قصيًّا عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السَّفاسير
وأكلها اللحم بحتًا لاخليط لـه وقولها : رحلت عير أتت عير

فأنكروا ذلك ، وقالوا : ما كتبها إلا ابن الزبعرى[١] .

وروى أن ورقة بن نوفل كان يكتب فى الجاهلية كتابة عربية وعبرية[٢] .

ثم إن التاريخ يحدثنا أن قريشًا تآمروا على النبى ﷺ ، وتعاقدوا فى صحيفة مكتوبة على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وعلقوا الصحيفة فى الكعبة ، وقد دعا رسول الله على كاتبها ، فشل بعض أصابعه[٣] .

وكان جماعة من اليهود يكتبون الخط العربى ، ويعلمونه صبيان يثرب ، فتعلم منهم الأوس والخزرج ، فكثر كتابهم بعد قلة ، وبلغوا أحد عشر ، منهم حضير الكاتب ، وسويد بن الصامت ، وعبد الله بن أبى[٤] .

وفى غزوة بدر افتدى بعض مشركى قريش أنفسهم بتعليم عشرة من أولاد الأنصار الكتابة[٥] .

وكان النضر بن الحارث بن كلدة القرشى قد أجاد الكتابة العربية والفارسية ، ودون أخبار الفرس وقصصهم[٦] ، وقد ذكر ابن هشام أن

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١٩٧ الأساطير : جمع أسطورة وهى الخرافة . السفاسير : جمع سفسير وهو السمسار أكلها اللحم البحت : كناية عن الفقر لأنهم يأكلون اللحم وحده بغير خبز أو شيء آخر.

(٢) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى لصحيح البخارى ١/ ٢٢ للشرقاوى والأغانى ٣/ ١٢٠ و ٤/ ١٢١ و ١٣/ ٢٠.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٢

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ٤٧٣ - ٤٧٩

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ٢٤٧ والسيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى ٢/ ٢٥٤ وإمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ١٠١ والكامل للمبرد ١/ ٢١٣.

(٦) المزهر ٢/ ٣٤٣

النضر كان من شياطين قريش ، وممن يؤذون النبى ﷺ ، وكان قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وقصص رستم واسفندياذ ، فكان إذا جلس رسول الله مجلسًا فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب سابقيهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه النضر فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثًا منه ، فهلم إلىّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يقص عليهم قصصًا عن ملوك فارس وعن رستم واسفندياذ .

وهو الذى زعم أنه سينزل مثل ما أنزل الله ، وفيه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى:

﴿ إذا تتْلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾[١] .

وقوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزُوًا ، أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولَّى مستكبرًا ، كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرًا ، فبشره بعذاب أليم ﴾[٢]

على أن فى القرآن الكريم مايدل على معرفة بعض القرشيين بالقراءة والكتابة ، مثل قوله تعالى :

﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفورًا ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض يَنْبوعًا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه ، قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولا ﴾[٣] .

فهم يلجئون فى عنادهم ، ويتعسفون فى مطالبهم ، فيتطلبون فيما

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٠ والآية من سورة القلم - ١٥

(٢) سورة لقمان ٦/ ٧

(٣) سورة الإسراء ٨٩ ، ٩٣

يتطلبون أن يصعد النبى إلى السماء ، وأن ينزل عليهم كتابًا يقرءونه .

وقد كان للنبى ﷺ كُتّاب ، بعضهم دوّن القرآن الكريم ، وبعضهم كتب رسائله إلى كسرى وقيصر والنجاشى والمقوقس وابنى الجلندى ملكى عمان وإلى غيرهم[1] وكانوا نحو أربعين كتابًا ، لكل منهم عمل أو أكثر ، وهم كلهم أو جلهم عرفوا الكتابة قبل الإسلام ، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والزبير بن العوام وعامر بن فهيرة وعمرو بن العاص وعبد الله بن الأرقم وثابت بن قيس وخالد بن الوليد وعبد الله بن رواحة وخالد بن سعيد بن العاص وأبان بن سعيد والعلاء بن الحضرمى وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وعبد الله بن أبى سرح ومعاوية بن أبى سفيان وحنظلة الأسيدى[2] .

وكانت الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس العدوية تكتب ، وقد أسلمت قبل الهجرة ، ثم وفدت على النبى بالمدينة ، فطلب منها أن تعلم السيدة حفصة الكتابة ، فعلمتها[3] ، فكانت السيدة حفصة والسيدة أم كلثوم من أزواج النبى تكتبان ، وكانت السيدة عائشة والسيدة أم سلمة تقرآن المصحف ولاتكتبان[4] .

٤ - ونجد فى الشعر الجاهلى كلمات كثيرة تتصل بالكتابة ، ومايكتب به وما يكتب فيه . قال الحارث بن حلِّزة :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس[5]

فشبه آثار الديار بصحائف الفرس .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٥٤ والحيوان للجاحظ ١ / ٩٨

(٢) تاريخ الطبرى ٣ / ١٨٢ وغيره

(٣) الإصابة ٨ / ١٢١ والاستيعاب ٤ / ١٨٦٩ وفتوح البلدان ٤٨٧

(٤) فتوح البلدان ٤٧٣

(٥) المفضليات ١ / ١٣٠ المهارق: جمع مهرق فارسى معرب وهو الصحيفة التى يكتب فيها.

وذكر أن حلف ذى المجاز كان مكتوبًا :

واذكروا حلف ذى المجاز وماقدّ ... م فيه العهود والكفلاءُ
حَذَرَ الخون والتعدى وهل تنـ ... ـقض ما فى المهارِق الأهواءُ [١]

وذلك أنهم كانوا فى الجاهلية يكتبون الحلف والهدنة ، تعظيمًا للأمر ، وتبعيدًا من النسيان وهذه المهارق التى وردت فى قول الحارث بن حلزة ليس يراد بها الصحف والكتب ، لأنه لايقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو عهود وميثاق وأمان[٢] .

وقال البعيث بن حريث الحنفى :

لمن طلل بروضات السِّخال ... تأبد كالمهاريق البوالى[٣]

وفى شعر أبى ذؤيب الهذلى وصف لكاتب يمنى يكتب دينًا له على رجل مشهور بالوفاء وفى هذا الوصف دقة ودلالات :

عرفت الديار كرقم الدوا ... ة يزبره الكاتب الحميرى
برقمٍ ووَشْىٍ كما زُخرفتْ ... بميشمها المزدهاةُ الهدى
أدان وأنبأه الأولو ... ن أن المدان الملىّ الوفى
فنمنم فى صحف كالريا ... ط فِيهن إرث كاتب محى[٤]

وفى شعر علياء بن أرقم ذكر للدين المكتوب :

أخذت لدين مطمئن صحيفة ... وخالفت فيها كل من جار أو ظلم[٥]

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى ٣٦٩ والبيان والتبيين ٣ / ٦ ذى المجاز: موضع كان عمرو بن هند أصلح فيه بين بكر وتغلب فأخذ عليهم المواثيق والرهائن من كل حى ثمانين.

(٢) الحيوان للجاحظ ١ / ٦٩

(٣) معجم البلدان ٤ / ٣١٧ روضة السخال: موضع بنواحى اليمامة

(٤) ديوان الهذليين ١ / ٦٤ يزبره: يكتبه . الميشم: الإبرة التى تشم بها المرأة كفها . المزدهاة: المعجبة . الهدى: العروس . أدان: باع إلى أجل فصار له دين على المشترى . الأولون: كبار السن . الملى: الموسر . الرياط: جمع ريطة وهى الملاءة لم تلفق . إرث: أصل .

(٥) الأصمعيات ١٨٠

وفى شعر الممزق العبدى ذكر للكفالة المكتوبة :

فلا أنا مولاهم ولا فى صحيفة   كفلت عليهم والكفالة تعتفى[١]

وورد ذكر الورق الشامى فى وصف طرفة لناقته ، وتشبيه خدها بالقرطاس[٢] .

وإنه ليسترعى النظر أن الشعراء أكثروا من تشبيه آثار الديار ، وتموجات رمالها ، والخطوط التى تصنعها الرياح فيها ، والأعشاب الخضراء التى ترصعها ، بالكتابة وبالصحف المكتوبة .

وهذه الكثرة كفيلة بأن تصحح نظرتنا إلى العرب قبل الإسلام ، فلا نصدق أن الكتابة كانت مجهولة لهم تلك الجهالة التى تحكى عنهم ، لأن هذا الفيض من التشبيه ينبئ عن معرفة بالورق وبالكتابة عند الشعراء المشبهين أو عند أكثرهم ، ومن خصائص التشبيه فى الشعر الجاهلى أنه لايجنح إلى العلاقات الظاهرة والمشابهات السطحية قدر ما يجنح إلى الربط الوثيق بين الأثر النفسى للمشبه وللمشبه به ، ومعنى هذا ، أن التشبيه هنا ليس منبعثًا عن تخيل أو محاكاة ، بل هو تصوير لعلاقة يجدها الشاعر فى نفسه بين منظر الأثر العافى وبين الكتابة ، ربما كانت فى تشابه المنظرين ، وربما كانت فى شعوره بين بقاء الكتابة بعد رحيل كاتبها أو موته وبقاء خطوط الطلل بعد رحيل الأحباب وفراقهم ، وربما كانت فى هذا وذاك .

ومن هذا تصوير معاوية بن جعفر عم لبيد لآثار الديار بأنها واضحة ظاهرة كأنما خطها كاتب ماهر منمق يجوّد كتابته حتى لايلحق بها عيب .

فإن لها منازل خاويـات   على نمى وقفت بها الركابا

---

(١) الأصمعيات ١٩٠ تعتفى: تطالب صاحبها بالوفاء بما كتب.

(٢) ديوان طرفة ١٩

من الأجزاعِ أسفل من نُمَيْلٍ كما رجَّعْتَ بالقلم الكتابا
كتابَ محبِّرٍ هاجٍ بصيرٍ ينمقه وحاذر أن يعابا[١]

وقول الأخنس بن شهاب التغلبى إن الآثار تشبه كتابة العنوان ، وقد اختار العنوان لأن خطه مجود واضح .

لابنة حطان بن عوف منازل كما رقَّش العنوانَ فى الرّق كاتب[٢]

وقول امرئ القيس بن حجر إن آثار الديار مثل الكتابة المخطوطة فى سعف النخل الوارد من اليمن معدًّا للكتابة .

لمن طلل أبصرته فشجانى كخط الزبور فى العَسيب اليمانى[٣]

وقول طرفة بن العبد إن الآثار كسطور الكتابة الجميلة التى نمقها كاتب فى وضح النهار ، وهذا أجود لها :

أشجاك الربع أم قدَمه أم ترابٌ دارسٌ حممهْ
كسطور الرّق رقَّشه بالضحا مرقش يشمه[٤]

وجاء مثل هذا فى شعر حاتم الطائى[٥] وفى شعر المرقش الأكبر[٦] وفى شعر ثعلبة بن عمرو العبدى[٧] .

فلا عجب فى أن كتب كثير من الشعراء شعرهم ، كعدى بن زيد العبادى ، ولقيط بن يعْمر الأيادى ، وسويد بن الصامت الأوسى ،

---

(١) المفضليات ٢ / ١٥٧ نملى : ماء بقرب المدينة . الأجزاع : منعطفات الوادى . نميل : تصغير نميلى مع حذف الزيادة . رجعت الكتابة : عدت عليها بالقلم . محبر : محسن . هاج : قارئ .
(٢) المفضليات ٢ / ٤ والأخنس هذا جاهل لاصحابى كما توهم الفيروزابادى إذ التبس عليه الأخنس بن شريق .
(٣) ديوان امرئ القيس ١٨٦
(٤) ديوان طرفة ٦٨ والأمالى ٢ / ٢٤٦ الرق : الصحيفة البيضاء . يشمه : يزخرفه .
(٥) شعراء النصرانية ١١٨
(٦) البيان والتبيين ١ / ٢٨٨ والأمالى ٢ / ٢٤٦
(٧) المفضليات ٢ / ٨١

وعبد الله بن رواحة ، والربيع بن زياد العبسى ، والمرقّش الأكبر ، وأخوه حرملة ، وكعب بن مالك الأنصارى ، والزبرقان بن بدر ، وكعب بن زهير ، وبجير بن زهير ، ولبيد العامرى ، وهم من أصقاع شتى ، ومن قبائل عدة[1] .

٥ - ولقد ترددت فى القرآن الكريم مادة القراءة سبع عشرة مرة ، ومادة التلاوة ثنتين وستين ومادة الكتابة بمعنى الخط ثلاث مئة ، والقلم فى أربع آيات ، والصحف فى ثمان ، والسطر ومادته فى خمس ، والدرس ومادته فى ست .

وليس بمعقول أن يخاطب القرآن الكريم بهذا قومًا يجهلون القراءة والكتابة جهلا عامًّا . من هذا قوله تعالى :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾[2] .

وقوله سبحانه :

﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾[3] .

وقوله تعالى :

﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا ﴾[4] .

وقوله سبحانه :

﴿ رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة ، فيها كتب قيمة ﴾[5] .

وقوله تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه

---

(١) المفضليات ٢ / ٨١ والشعر والشعراء ١ / ٩١ ، ١٥٢ والأغانى ٢ / ١٠١ ، ١٨٠ و ٣ / ٢٥، ٥ / ١٨١ ، ١٦ / ٢٠ ، ٢٢، ٢٤ والمحبر لابن حبيب ٢٧١ وسيرة ابن هشام ٤ / ١٤٤ - ١٤٦ الطبقات الكبرى ٣/ ٢.

(٢) سورة العلق ١

(٣) سورة الحاقة ١٩

(٤) سورة الإسراء ١٤

(٥) سورة البينة ٢ - ٣

الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولايبخس منه شيئًا ﴾[١] .

وقوله سبحانه :

﴿ وإن عليكم لحافظين ، كرامًا كاتبين ، يعلمون ماتفعلون ﴾[٢] .

وقوله تعالى :

﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[٣] .

وقوله سبحانه :

﴿ فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ﴾[٤] .

وقوله تعالى :

﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾[٥] .

وقوله تعالى :

﴿ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾[٦] .

وقوله سبحانه :

﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورًا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرًا ﴾[٧] .

وقوله سبحانه :

﴿ ن . والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾[٨] .

---

(١) سورة البقرة ٢٨٢

(٢) سورة الانفطار ١٠- ١٢

(٣) سورة الأنبياء ١٠٥

(٤) سورة عبس ١٢- ١٤

(٥) سورة الأعلى ١٨ - ١٩

(٦) سورة الأنعام ٧

(٧) سورة الأنعام ٩١

(٨) سورة القلم ١- ٢

وقوله تعالى :

﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله ﴾[1] .

فليس بصحيح ماشاع قديمًا وحديثًا عن جهل العرب جميعًا بالقراءة والكتابة سواء فى ذلك ماذكره بعض المسلمين كالأزهرى[2] ، وابن منظور[3] ، والزبيدى[4] ، وماذكره بعض المستشرقين مثل نيكلسون[5] .

---

(١) سورة لقمان ٢٧

(٢) تهذيب اللغة ١٥ - ٦٣٦

(٣) لسان العرب مادة أم .

(٤) تاج العروس مادة أم

(٥) Aliterary History of Arabs. p .21 .

ثانيًا : فى المعاجم اللغوية

تتبعت المعاجم اللغوية ، فحدثتنى بما أقصه :

١ - كتاب العين للخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٥هـ) .

صمت عن ذكر كلمة (أمى) فلم يجئْ به المعنى الذى يهمنى فى هذه الدراسة وهو الذى لايكتب ولايقرأ ، ولم يرد به المعنى الآخر الذى لايعنينى هنا وهو العين الجلف القليل الكلام[١] .

٢ - الجمهرة لابن دريد (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) .

خلا هذا المعجم من الكلمة كما خلا سابقه[٢] .

٣ - التهذيب للأزهرى (المتوفى سنة ٣٧٠هـ) .

ذكر الآية الكريمة :

﴿ ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى ، وإن هم إلا يظنون ﴾[٣] .

ثم قال : أبو إسحاق : معنى الأمى فى اللغة المنسوب إلى ما عليه جَبَلْته أمه ، أى لايكتب ، فهو فى أنه لايكتب على ماولد عليه .

وقال غيره : قيل للذى لايكتب أمى ، لأن الكتابه مكتسبة ، فكأنه نسب إلى ماولد عليه ، أى هو على ماولدته أمه عليه .

وكانت الكتابة فى العرب فى أهل الطائف ، تعلموها من رجل من أهل الحيرة من أهل الأنبار . قال أبو زيد : الأمى من الرجال العيى القليل الكلام الجافى الجلف ، وأنشد :

ولا أعود . بعدها كريّا
أمـارس الكهلة والصبيا
والعَـزبَ المنفه الأميـا[٤]

---

(١) المخطوطة ٤/ ٤٢١
(٢) الجمهرة ١/ ٢٠
(٣) سورة البقرة ٧٨
(٤) الكرى: المكارى: الأجير . المنفه: العيى

قيل له أمي لأنه على ماولدته أمه عليه من قلة الكلام وعجمة اللسان .

وقيل للنبي ﷺ (الأمي) لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولاتقرأ المكتوب ، بعثه الله رسولا وهو لايكتب ولايقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة إحدى آياته المعجزة ، لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظومًا مع أميته بآيات مفصلات ، وقصص مؤتلفات ، ومواعظ حكيمات ، تارة بعد أخرى بالنظم الذى أنزل عليه ، فلم يغيره ، ولم يبدل ألفاظه .

وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص ، فحفظه الله عز وجل على نبيه كما أنزله ، وأبانه من سائر من بعثه إليهم بهذه الآية التى باين بينه وبينهم فيها .

وفى ذلك أنزل الله تعالى :

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك ، إذًا لارتاب المبطلون ﴾[1] .

يقول جل وعز لو كنت تتلو من الكتاب أو تخط لارتاب المبطلون الذين كفروا ، ولقالوا إنه وجد هذه الأقاصيص مكتوبة فحفظها من الكتب[2] .

وإذا صدر الأزهرى ماذكره فى معنى الأمى - أنه الذى لايكتب ولايقرأ - بقوله : قال أبو إسحاق ، أردت أن استوثق من النص ، فرجعت إلى ماقاله أبو إسحاق إبراهيم بن السرى بن سهل النحوى تلميذ المبرد وشيخ أبي على الفارسي (المتوفى سنة ٣١٦هـ) فوجدت النقل صحيحًا ، لأن الزجاج فى تفسيره لكلمة أمي وأميين - كما سيأتى فى آراء المفسرين - قال إن كلمة أمي نسبة إلى الأمة ، أى إلى ما عليه جبلة الأمة فى الخلقة ، لأن الإنسان يخلق غير كاتب[3] .

---

(١) سورة العنكبوت ٤٨

(٢) تهذيب اللغة ١٥ / ٦٣٦

(٣) معانى القرآن للزجاج ١٤ / ٣٨ ، ٨٥ ، ٩٥ من المصورة رقم ٢٤٧ ، ورقم ٢٤٨ ورقم ٢٥٠ تفسير بمعهد المخطوطات ، بجامعة الدول العربية .

٤ - مقاييس اللغة لابن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥هـ) .

نقل عن أبي عبيد أن الأمى فى اللغة المنسوب إلى ما عليه جبلة الناس ، لايكتب ، فهو فى أنه لايكتب على ماولد عليه[١].

وليس به المعنى الآخر وهو الجلف العيى القليل الكلام الجافى[٢] .

٥ - الصحاح للجوهرى (المتوفى سنة ٣٩٣هـ أو ٣٩٨هـ)

خلا من ذكر كلمة أمى كما خلا منها كتاب العين وكتاب الجمهرة .

٦ - المحكم لابن سيده (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) .

ذكر أن الأمى الذى لايكتب ، ونقل عن الزجاج مانقله الأزهرى فى التهذيب ، ثم ذكر المعنى الثانى للكلمة ، والرجز الذى وردت فيه غير منسوب إلى قائل ، كما فى التهذيب[٣] .

٧ - أساس البلاغة للزمخشرى (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ)

ليس به ذكر لكلمة (أمى)[٤] ، ولكنه عرض لها فى كتابه (الكشاف) كما سيجىء فى آراء المفسرين مع أنه ألف الكشاف قبل أن يؤلف أساس البلاغة ، بدليل ماذكره فى مادة حفر ، فقد فرغ من التفسير سنة ٥٢٨ وعاش إلى سنة ٥٣٨هـ وفى هذه الفترة ألف أساس البلاغة .

٨ - لسان العرب لابن منظور (المتوفى سنة ٧١٧هـ) .

ذكر نقلا عن أبي إسحاق الزجاج أن الأمى الذى لايكتب ، كأنه نسب إلى مايولد عليه ، أى على ماولدته أمه عليه ، لأن الكتابة مكتسبة .

واستشهد بالآية الكريمة :

﴿ ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾[٥]

وذكر الحديث الشريف : « إنا أمة لا نكتب ولا نحسب » والحديث

---

(١) مقاييس اللغة مادة أم

(٢) الصحاح مادة أم

(٣) المحكم مادة أم ورقة ٢٦٦ من المخطوطة رقم ٥٠ دار الكتب بالقاهرة.

(٤) أساس البلاغة مادة أم.

(٥) سورة البقرة ٧٨

الآخر « بعثت إلى أمة أمية » وقال : أى أنهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى .

وقال : إنه قيل للعرب أميون ، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة ، ومنه قوله تعالى :

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾[١] .

ثم أورد المعنى الثانى لكلمة أمى ، وذكر الرجز الذى ذكره الأزهرى وابن سيده ، وقال قيل له أمى لأنه على ما ولدته أمه عليه من قلة الكلام وعجمة اللسان[٢] .

٩ - القاموس المحيط للفيروزابادى (المتوفى سنة ٨١٧هـ) .

جاء فيه المعنيان للكلمة ، وزاد أن الأمَّان هو الأمى[٣] .

١٠ - تاج العروس للزبيدى (المتوفى سنة ١٢٠٥هـ) .

ردد ماجاء فى لسان العرب[٤] .

١١ - ثم أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ثلاثة معاجم ، هى المعجم الوسيط والمعجم الكبير ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ، فلم يغير شيئًا من ذلك المعنى لكلمة أمى ، فقد ذكر فى المعجم الوسيط وفى المعجم الكبير[٥] المعنيين اللذين فى لسان العرب وغيره ، وذكر فى معجم ألفاظ القرآن الكريم[٦] المعنى الأول وهو أن الأمى من لايكتب ولايقرأ ، وقال إنه جمعه أميون .

---

(١) سورة الجمعة ٢

(٢) لسان العرب مادة أم

(٣) القاموس المحيط مادة أم

(٤) تاج العروس مادة أم

(٥) مادة أم

(٦) معجم ألفاظ القرآن الكريم ١/ ٥٣

تعقيب على المعاجم

بعد هذا التتبع التاريخى للمعاجم تبدر عدة ملاحظات :

١ - أقدم المعاجم وهما كتاب العين للخليل بن أحمد (المتوفى ١٧٥ هـ) والجمهرة لابن دريد (٣٢١ هـ) خاليان من كلمة أمى .

ويشاركهما فى هذا مشاركة كاملة المعجم الخامس وهو الصحاح للجوهرى (٣٩٣هـ) والمعجم السابع وهو أساس البلاغة للزمخشرى (٥٣٨ هـ) .

ويشترك معهما فى شطر واحد المعجم الرابع وهو مقاييس اللغة لابن فارس (٣٩٥ هـ) إذ أورد المعنى الأول لكلمة أمى ، ولم يورد المعنى الثانى .

أما المعجم الثالث وهو التهذيب للأزهرى (٣٧٠ هـ) فهو أقدم معجم ذكر كلمة أمى ، وذكر معنييها ، وتبعته المعاجم الأخرى ، لأن المتأخر منها نقل عن المتقدم ، وهى المعجم السادس ، وهو المحكم لابن سيده (٥٤٨ هـ) والثامن وهو لسان العرب لابن منظور (٧١٧ هـ) والتاسع وهو القاموس المحيط للفيروزابادى (٨١٧ هـ) والعاشر وهو تاج العروس للزبيدى (١٢٠٥هـ) والحادى عشر وهو المعجم الوسيط والمعجم الكبير .

٢ - أول من ذكر المعنيين معًا هو الأزهرى نقلا عن الزجاج وعن أبى زيد ، ثم نقل آخرون عن الأزهرى أو نقلوا عن سابقيهم الذين أخذوا منه .

والعجيب أن اثنين من كبار اللغويين هما الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ) والفراء (٢٠٧ هـ) عاشا قبل الزجاج (٣١٦ هـ) بزمن طويل ، وأن عالمًا لغويًا كبيرًا عاصره وعاش خمس سنوات بعده هو ابن دريد (٣٢١ هـ) ولكن يذكر واحد منهم ماذكره الزجاج ومانقله عنه الأزهرى .

٣ – على أن الأزهرى قال فى مادة (أم) كلامًا يقتضى التعقيب ، قال : « واعلم أن كل شىء يضم إليه سائر مايليه ، فإن العرب تسمى ذلك الشىء أمًّا » ، من ذلك أم الرأس .. إلخ والأم لكل شىء هى المجمع والمضم ، وأصل هذا الباب كله من القصد ، يقال أممت الرجل إذا قصدته ، فمعنى الأُمَّة فى الدين أن مقصدهم واحد ، ومعنى الإِمَّة فى النعمة إنما هو الشىء الذى يقصده الخلق ويطلبونه ، ومعنى الأُمَّة فى الرجل المنفرد الذى لانظير له أن قصده منفرد من قصد سائر الناس ، ومعنى الأمة القامة ، لأنها سائر مقصد الجسد ، فليس يخرج شىء من هذا الباب عن معنى أممت أى قصدت[1] .

فأية صلة بين المعنى العام لمادة الكلمة وهو الضم والجمع القصد وبين المعنيين اللذين نقلهما عن الزجاج وأبى زيد ، وهما الجهل بالقراءة والكتابة ، والعيى والجلافة ؟ .

هل قصد الجاهل بالكتابة والقراءة أن يجهلها ؟

وهل تعمد العيى الجلف الجافى القليل الكلام أن يكون كذلك ؟

٤ – ومن حقنا أن نتساءل عن السبب فى نسبة الجاهل بالقراءة والكتابة إلى الأم كما ورد فى بعض المعاجم ، ولنا أن نستبعد التعليل الذى ذكر وهو أنه على الفطرة التى ولدته عليها أمه ، وذلك أن الأم تلد ابنها حيًّا ، متغذيًا ، ناميًا ، مزودًا بغرائز وميول ، خليًّا من المعارف والتجارب ، عاجزًا عن الفهم وعن النطق وعن المشى ، معدًّا للفناء بعد أجل محدد .. إلخ . فلماذا نسب جهله بالقراءة والكتابة إلى أمه ولم ينسب إليها حال من هذه الأحوال التى هى ألصق بنفسيته ، وأدخل فى مولده ونشأته وأقوى فى نسبه إلى ما ولدته عليه أمه ؟ ولماذا نسب فى هذا إلى أمه ولم ينسب إلى أبيه وهو شريك فى تكوينه وتوريثه ؟

---

(١) التهذيب ١٥/ ٦٣١

٥ - كذلك نسأل عن السبب فى نسبته إلى الأُمَّة فى جهله بالكتابة والقراءة كما ذكرت بعض المعاجم .

ويحق لنا أن نرفض التعليل الذى ذكر وهو أنه على جبلة الأمة ، لأن لكل أمة عاداتها وعقائدها وأزياءها وعرفها وصناعاتها وصفاتها الكثيرة التى تمتاز بها ، فلماذا تعين الجهل بالقراءة والكتابة وحده ليكون هو النسب إلى الأمة ؟

لماذا لم يقولوا الأمية وهم يريدون مثلا شجاعة العرب أو نخوتهم ، أو كرمهم ، أو وثنيتهم ، أو احترافهم بالرعى ، أو كلفهم بالثأر ، أو نظامهم القبلى ، أو بلاغتهم وشاعريتهم ؟ .

٦ - بقى بعد هذا أن الأزهرى نقل عن أبى زيد أن الأمى هو العيى القليل الكلام الجافى الجلف ، ونقل عنه رجزًا لم يذكر قائله .

فإلى أى شىء نسبت الكلمة بهذا المعنى ؟

هل نسبتها إلى الأم أو إلى الأمة تؤدى هذه المعانى التى لاصلة لها بالأم ولا بالأمة ؟

ومن ذا الذى يزعم أن العى وقلة الكلام والجفاء والجلافة من الصفات التى يرثها الطفل عن أمه أو عن أمته ؟

٧ - وإننا لندهش من أن يكون لكلمة أمى معنى واسع يكاد يشمل العرب جميعًا فى العصر الجاهلى وهو الجهل بالكتابة والقراءة ، ومعنى ثان كان من المتوقع أن يوصم به كثير من الناس فى مقام الهجاء أو السخرية أو اللوم وهى العى والجلافة والجفاء ، ثم لانجد فى الشعر الجاهلى كلمة أمى بهذا المعنى أو ذاك ، وكل ما وصل إلينا هو ذلك الرجز الذى ذكره الزجاج ونقله الأزهرى عنه أو عن أبى زيد .

وإنه ليضعف من قيمة هذا الرجز أنه غير معروف القائل ، وغير معلوم العصر ، ولعله مما وضع للاستشهاد والتعليل والتدليل .

ثالثًا : عند المفسرين

١
معنى كلمة أميين

ترددت كلمة أميين فى أربع آيات من القرآن الكريم .

فما المراد بها فى كل آية ؟ .

لقد رأيت أن أسترشد بالمعاجم كماسبق ، وبما قاله بعض المفسرين ، فتخيرت بضعة منهم ، فيهم السنى والمعتزلى والشيعى ، وفيهم الراوية عن السلف ، والمدلى برأيه ، وآثرت أن أعرض آراءهم متدرجًا مع حياتهم من سابق إلى لاحق كما عرضت آراء اللغويين .

الآية الأولى

أما الآية الأولى فهى قوله تعالى :

﴿ ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى ، وإن هم إلا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنًا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون ﴾[1] .

وأما آراء المفسرين فهى :

١ - ليس فى معانى القرآن للفراء (المتوفى سنة ٢٠٧هـ) تفسير الكلمة .

٢ - ذهب ابن جرير الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠هـ) إلى أنهم ناس من اليهود لا يكتبون ولا يقرءون ، وذكر الحديث الشريف : « أنا أمة أمية لانكتب

---

(١) سورة البقرة ٧٨ - ٧٩

ولا نحسب » ، أو إلى أنهم جماعة من اليهود لايحسنون قراءة التوراة والتحقق مما فيها .

ونقل رواية عن ابن عباس أنهم قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتابا أنزله الله ، فكتبوا كتابًا بأيديهم ، ثم قالوا لقوم جهال هذا من عند الله ، وأخبر أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين ، لجحودهم كتب الله ورسله .

وعقب الطبرى على هذا الرأى بقوله : هذا التأويل على خلاف مايعرف من كلام العرب المستفيض بينهم ، وذلك أن الأمى عند العرب هو الذى لايكتب .

ورجح الرأى الذى ينتهى إلى إبراهيم النخعى وهو أن المراد بالأميين فى الآية اليهود الذين لايحسنون أن يكتبوا .

وقال إن الكتاب المذكور هو التوراة . فهذا الفريق الذى لايحسن أن يكتب ، ولايدرى مافى التوراة ينتحل الإقرار بها وبأحكام الله وفرائضه وحدوده كذبًا وباطلا وزورًا[1] .

٣ – قال أبو إسحاق إبراهيم بن السرى المشهور بالزجاج (المتوفى سنة ٣١٦ هـ) فى كتابه معانى القرآن أن الأمى فى اللغة المنسوب إلى ماعليه جبلة أمته ، أى لايكتب ، فهو فى أنه لايكتب على ماولد عليه[2] .

٤ – نقل أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) الرواية التى ذكرها الطبرى عن ابن عباس ، ولم يعقب عليها ، ونقل عن أبى عبيدة أن الأميين هم الأمم الذين لم ينزل عليهم كتاب[3] .

٥ – وافق الزمخشرى (٥٣٨ هـ) والقرطبى (٦٧١ هـ) والنيسابورى (٨٢٨ هـ) الرأى الأول للطبرى ، وهو أن المراد جماعة من اليهود

(١) تفسير الطبرى ١ / ٢٩٦

(٢) معانى القرآن للزجاج ورقة ٣٨ من النسخة المصورة رقم ٢٤٧ بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية.

(٣) التبيان فى تفسير القرآن ١ / ٣١٨

لايكتبون ولايقرءون ، أو لايجيدون قراءة التوراة والتحقق مما فيها[١] .

٦ - ثم زاد القرطبى (المتوفى سنة ٦٧١ هـ) أقوالا أخرى هى :

(ا) أن أبا عبيدة قال : إنهم سموا أميين لنزول الكتاب عليهم ، كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب ، فكأنه قال ومنهم أهل الكتاب لايعلمون الكتاب .

(ب) وأن عكرمة والضحاك قالا : هم نصارى العرب .

(جـ) وروى عن على بن أبى طالب : أنهم المجوس .

(د) وقيل إنهم أميون ، لأنهم لم يصدقوا بأم الكتاب ، وهذه رواية عن ابن عباس .

(هـ) وقيل إنهم قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها ، فصاروا أميين . وعقب القرطبى على هذا بقوله : والقول الأول أظهر ، يريد أنهم اليهود الذين لايكتبون ولايقرءون[٢] .

٧ - أما ابن كثير (٧٧٤ هـ) فقد نقل ماذكره ابن جرير الطبرى[٣] .

ومن هذا العرض نستخلص أن المفسرين لم يتفقوا على معنى كلمة أميين .

فهم يهود لايكتبون ولا يقرءون ، أو هم يهود لايجيدون قراءة التوراة ، وقد سبق فى التعقيب على المعاجم اللغوية توهين الربط بين هذه الكلمة وجهل القراءة والكتابة ، أو هم سموا أميين لنزول الكتاب عليهم ، أو لأنهم لم يصدقوا بأم الكتاب ، أو لأنهم أصحاب كتاب رفع ، وهذه آراء واهية .

والذى أرجحه أن الأميين هنا ناس تهودوا سواء أكانوا من المجوس أو من النصارى أو من غيرهم ، لأن اليهود - كما سيجىء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ - كانوا يزعمون أنهم شعب الله المختار ، ويطلقونه على من عداهم من الأمم أو الأمميين أى الأميين وهم يريدون غير اليهود ، أى الذين لم ينزل عليهم كتاب . ويقوى هذا

---

(١) الكشاف ١ / ٧٨ وتفسير القرطبى ٢ / ٦ وتفسير النيسابورى على هامش الطبرى ١ / ٣١٨

(٢) تفسير القرطبى ٢ / ٦

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١١٦

الترجيح أن ماقبل الآية ومابعدها قصص عن بنى إسرائيل .

وبعد هذا العرض والترجيح استنبط أمرين :

الأول : أنه لا علاقة بين كلمة أميين فى هذه الآية وجهل العرب بالقراءة والكتابة ، لأن ماقبل الآية وما بعدها منصب على بنى إسرائيل .

الثانى : أن بعض اليهود كانوا من غير بنى إسرائيل ثم تهودوا ، وكانوا لايقرءون التوراة ، إما لصعوبتها عليهم وإما لأن الأحبار صدوهم عنها بأكاذيبهم التى كتبوها بأيديهم ، وزعموا لهم أنها من التوراة ، فتقبلها هؤلاء مصدقين ، ومن هذه الأمانى أو الأباطيل أن الله تعالى يعفو عن خطاياهم ، لأن أنبياء بنى إسرائيل يشفعون لهم عند الله ، ومنها أن النار لاتمسهم إلا أيامًا معدودة .

وإذن فلا صلة بين هذا المعنى والجهل بالكتابة والقراءة ، لأن تفهم التوراة والدراية بمعانيها وأحكامها شىء والجهل بالكتابة والقراءة شىء آخر .

الآية الثانية

أما الآية الثانية فهى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فإن حاجوك فقل : أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ، : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ﴾[1] .

وللمفسرين فى كلمة أميين آراء :

١ – لم يذكر الفراء معنى هذه الكلمة[2] .

٢ – قال الطبرى : فإن حاجك نصارى نجران فى أمر عيسى عليه السلام ، فخاصموك فيه بالباطل فقل : إنى خضعت لله وحده بلسانى وبقلبى

---

(١) سورة آل عمران ٢٠

(٢) معانى القرآن للفراء

وبجميع جوارحى ، وأسلم لله من اتبعونى . وقل يامحمد للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى والأميين الذين لاكتاب لهم من مشركى العرب : أأسلمتم ودنتم بتوحيد الله ، وأخلصتم العبادة له دون سائر الأنداد والأشراك التى تشركونها معه ، وأنتم تعلمون أنه لارب غيره ولا إله سواه ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا .

ثم أورد روايات تنتهى إلى محمد بن جعفر بن الزبير أن الأميين هم الذين لاكتاب لهم ، وعن ابن عباس أنهم الذين لايكتبون[1] .

٣ – قال الزجاج إن الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى ، وأن الأميين هم مشركو العرب ، لأنهم نسبوا إلى ماعليه الأمة فى الخلقة ، لأن الإنسان يخلق غير كاتب[2] .

٤ – نقل الطوسى عن ابن عباس وغيره من أهل التأويل أنهم مشركو العرب[3] .

٥ – ذكر الزمخشرى أنهم المشركون من العرب الذين لاكتاب لهم ، لأن الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى[4] .

٦ – أورد القرطبى روايات تنتهى إلى محمد بن جعفر بن الزبير أن الأميين هم الذين لاكتاب لهم ، ورواية عن ابن عباس أنهم الذين لايكتبون[5] .

٧ – وافق النيسابورى (توفى سنة ٧٢٨ هـ) الزمخشرى فيما كتبه .

٨ – أما ابن كثير (٧٧٤ هـ) فلم يذكر شيئاً[6] .

ومن هذا يتبين أن الأميين فى أرجح الآراء هم المشركون من العرب ، لا لأنهم كانوا يجهلون القراءة والكتابة ، بل لأنهم لم يكونوا مثل اليهود أصحاب كتاب سماوى يدينون به ، ويعزز هذا أن الآية الكريمة تقابل بين

---

(١) تفسير الطبرى ٣/ ١٤٣

(٢) معانى القرآن للزجاج ورقة ٨٥ من الصورة رقم ٢٤٧ تفسير بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية.

(٣) التبيان فى تفسير القرآن للطوسى ٢/ ٤٢١

(٤) الكشاف ١/ ١٨١

(٥) تفسير القرطبى ٥/ ٤١٣ و ٦/ ٢٨٢

(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٣

العرب وأهل الكتاب ، وأن ماقبل الآية خاص بأهل الكتاب :

﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾

وكذلك ما بعد الآية خاص بأهل الكتاب :

﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

الآية الثالثة .

وأما الآية الثالثة فهى قوله تعالى :

﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك إلا مادمت عليه قائمًا ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾[1] .

وهذه آراء المفسرين :

١ – لم يفسر الفراء هذه الكلمة[2] .

٢ – قال الطبرى : من اليهود أهل أمانة يؤدونها ولا يخونونها ، ومنهم الخونة الفجار الذين يستحلون أموال غيرهم ، فإن تأمن واحدًا منهم على دينار يخنك فيه فلا يؤده إليك إلا أن تلح عليه بالتقاضى والمطالبة .

والغرض تحذير المسلمين أن يأتمنوهم على أموالهم ، وتخويفهم الاغترار بهم .

ثم ذكر رواية عن قتادة هى أن الأميين هم المشركون الذين لاكتاب لهم .

وأورد رأيًا آخر هو أن المراد بالأميين من كانوا على دين وتركوه إلى الإسلام ، فقد بايع اليهود رجال فى الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضاهم هؤلاء

---

(١) سورة آل عمران ٧٥

(٢) معانى القرآن للفراء

الرجال المسلمون ثمن بيوعهم ، فقال اليهود ليس لكم علينا أمانة ، ولاقضاء لكم عندنا ، لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعى اليهود أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم ، فقال الله عز وجل :

﴿ **ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾[1] .

وخلاصة ماذكره الطبرى أن الأميين هنا هم العرب ، لأنهم فى نظر اليهود مشركون على غير الحق ، أو هم المشركون الذين لاكتاب لهم سواء أكانوا عربًا أم غير عرب أو هم المسلمون لأنهم كانوا على دين وتركوه .

٣ - قال الزجاج إن اليهود قالوا ليس علينا ظلم فى أخذ مال المشركين الذين انتقلوا إلى الإسلام[2] .

٤ - ذكر الطوسى عن قتادة والسدى أن اليهود قالوا ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل ، لأنهم مشركون .

وعن الحسن وابن جريح أنهم قالوا ذلك ، لأن العرب تحولوا عن دينهم الذى عاملوهم عليه[3] .

٥ - قال الزمخشرى إن الأميين فى نظر اليهود هم الذين ليسوا من أهل الكتاب ، وليسوا على دين اليهود ، وكان اليهود يستحلون ظلم من خالفوهم ، ويدعون أنه لاحرمة لمخالفيهم فى كتابهم[4] .

٦ - ذكر القرطبى أن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، أى لا حرج علينا فى ظلمهم ، لمخالفتهم إيانا ، وادعوا أن ذلك فى كتابهم ، فكذبهم الله تعالى ، ورد عليهم فقال :

﴿ **بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** ﴾[5] .

ويقال إن اليهود كانوا قد استدانوا من العرب أموالا ، فلما أسلم أرباب الحقوق قالت اليهود ليس لكم علينا شىء ، لأنكم تركتم دينكم ،

---

(١) تفسير الطبرى ٣/ ٢٢٦ والآية من سورة آل عمران ٧٨

(٢) معانى القرآن للزجاج ورقة ٩٥ من المصورة ٢٤٧ تفسير .

(٣) التبيان فى تفسير القرآن ٢/ ٥٠٤

(٤) الكشاف ١/ ١٩٦

(٥) سورة آل عمران ٧٦

فسقط عنا دينكم ، وادعوا أن هذا حكم التوراة ، فرد الله قولهم[١] .

٧ - قال النيسابورى إن الأميين هم العرب ، ولكن لم يبين لماذا سموا بذلك[٢]

٨ - ذكر ابن كثير (٧٧٤ هـ) أن اليهود قالوا ليس علينا حرج فى أكل أموال الأميين وهم العرب فإن الله أحلها لنا[٣] .

ومهما يكن من شىء فإنه ليس فى تفسير الكلمة مايصف العرب بجهل القراءة والكتابة وليس به ما يتجاوز وصف العرب بأنهم أميون ، لأنهم لم يكن لهم كتاب سماوى قبل القرآن الكريم .

فدلالة الكلمة فى هذه الآية كدلالتها فى الآية السابقة ، لا علاقة بينها وبين الجهل بالقراءة والكتابة .

ويعزز هذا أن الآية نص فى أهل الكتاب ، وأن ماقبلها وما بعدها خاص بأهل الكتاب .

الآية الرابعة

وأما الآية الرابعة فهى قوله عز وجل :

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ [٤] .

وللمفسرين فى معنى الكلمة آراء :

١ - لم يذكر الفراء معناها فى كتابه معانى القرآن .

٢ - نفهم من تفسير الطبرى أن كلمة الأميين تدل هنا كما دلت فى الآيتين السابقتين على العرب ، إذ لم يكن لهم كتاب سماوى يدينون به ويقرءونه ، فبعث الله محمدًا عليه الصلاة والسلام ليهديهم إلى التوحيد ، ويعلمهم ما فى القرآن الكريم من أمر الله ونهيه وشريعته ، وليطهرهم من الوثنية والكفر .

---

(١) تفسير القرطبى ٤ / ١١٨

(٢) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٣ / ٢٢٦

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٧٤

(٤) سورة الجمعة ٢

وإلى هذا التأويل ذهب مجاهد وقتادة وابن زيد[١] .

ويعزز هذا التأويل ختام الآية :

﴿ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾

أى أن هؤلاء كانوا قبل النبي وقبل نزول القرآن الكريم فى ضلال من عقائدهم .

ويعززه أيضًا قوله تعالى :

﴿ بل هو الحق من ربك لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك ، لعلهم يهتدون ﴾[٢] .

٣ – فسر الزجاج الأميين بأنهم الذين لا يكتبون ، لأنهم على ما خلقت عليه الأمة ، فإن تعلم الكتابة والكلام لا يكون إلا بتعلم[٣] .

وقد سبق تفنيد هذا التعليل فى مناقشة المعاجم اللغوية .

٤ – ذكر الراغب الأصفهانى (المتوفى سنة ٥٠٢ هـ) أن الأمى هو الذى لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، ونقل عن قطرب أن الأمية الغفلة والجهالة ، فالأمى منه ، وذلك هو قلة المعرفة ، ونقل عن الفراء أنهم العرب الذين لم يكن لهم كتاب[٤] .

٥ – أما الزمخشرى فذهب إلى أن الأميين هم العرب ، لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرءون من بين الأمم[٥] .

٦ – وأما القرطبى فقد ذكر رواية ابن عباس أنهم العرب كلهم ، من كتب منهم ومن لم يكتب ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب سماوى[٦] .

ثم قال : وقيل إنهم الذين لا يكتبون ، وكذلك كانت قريش ، وروى منصور عن إبراهيم أن الأمى هو الذى يقرأ ولا يكتب .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٨/ ٦١

(٢) سورة السجدة ٣

(٣) معانى القرآن للزجاج من تفسير سورة الجمعة نسخة مصورة رقم ٢٥٠ تفسير بمعهد المخطوطات.

(٤) غريب القرآن للراغب الأصفهانى ٢٣

(٥) الكشاف ٤/ ٩٦

(٦) تفسير القرطبى ١٨/ ٩٢

٧ – على أن النيسابورى ذكر أن الكلمة منسوبة إلى أمة العرب ، أو إلى أم القرى[١] .

٨ – أما ابن كثير فذكر أن الأميين هم العرب ، وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من عداهم ، لأن الرسالة عامة[٢] .

ونستطيع أن نستخلص من هذا كله أن الرأى الأرجح هو أن المراد بالأميين غير اليهود ، وهذا يشمل العرب وغيرهم ، ولكن المقصود هنا العرب لأن النبى محمدًا عليه الصلاة والسلام منهم ، وبعث فيهم أول الأمر ، وليس السبب فى تسميتهم أميين أنهم كانوا يجهلون القراءة والكتابة ، بل السبب أنهم لم يكونوا قبل نزول القرآن الكريم أهل كتاب سماوى كما كان اليهود .

ولقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة ، قال تعالى :

﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك ، لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك ، لعلهم يتذكرون ﴾[٣] .

وقال سبحانه :

﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك ، لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك ، لعلهم يهتدون ﴾[٤] .

وقال تعالى :

﴿وما أتيناهم من كتب يدرسونها،وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾[٥] .

وقال عز وجل :

﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾[٦] .

---

(١) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٢٨ / ٦٤

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٦٣

(٣) سورة القصص ٤٦

(٤) سورة السجدة ٢ / ٣

(٥) سورة سبأ ٤٤

(٦) سورة يس ٦

وقال جل وعلا :

﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[١] .

ويعزز أن المراد بالأميين فى هذه الآية غير اليهود أن الرسالة المحمدية بدأت بالعرب وهم غير اليهود ، ولكنها رسالة عامة للبشر جميعًا، لأن الآية التالية وهى قوله تعالى :

﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾[٢] .

تنبئ بأن آخرين من الأميين مطالبون بهذه الرسالة ، وسيدينون بها قريبًا ، فلو أن هؤلاء الآخرين هم العرب وحدهم لكانت الرسالة خاصة بالعرب ، أما والرسالة عامة فإن الآخرين هنا تعنى أممًا أخرى .

كذلك يعزز أن الأميين هنا غير اليهود أن الآيات التالية لهذه الآية جاءت كلها فى الأخبار عن اليهود وعنادهم وسخط الله عليهم وحبهم للحياة[٣] .

---

(١) سورة آل عمران ١٦٤

(٢) سورة الجمعة ٣

(٣) سورة الجمعة ٥ / ٨

٢
معنى كلمة أمى

وردت كلمة أمى مرتين فى القرآن الكريم .

الأولى فى قوله تعالى :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به ، وعزروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون ﴾[١] .

والثانية فى قوله سبحانه :

﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[٢] .

وليس من شك فى أن المقصود بالأمى فى هاتين الآيتين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن ماذا تعنى كلمة أمى هنا ؟

١ - تعنى فى رأى بعض المفسرين أنه لم يكن يكتب ، ولم يكن يقرأ ، وكانت هذه الخلة إحدى معجزاته ، لأنه تلا عليهم كتاب الله منظومًا تارة بعد أخرى بالنظم الذى أنزل عليه ، فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها زاد فيها ونقص ، فحفظه الله عز وجل على نبيه كما أنزله ، وميزه من سائر بعثه إليهم بهذه الآية[٣] .

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧

(٢) سورة الأعراف ١٥٨

(٣) تفسير الطبرى ١٣ / ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٧١ ومعانى القرآن للزجاج ورقة ١٤ من المصورة ٤٨ وغريب القران للراغب الأصفهانى ٢٣ ، وتفسير القرطبى ٧ / ٢٩٨ ، ١٨ / ٩٢ وتفسير النيسابورى ٩ / ٥٩ وتفسير ابن كثير ١ / ١١٦ ولسان العرب وتاج العروس مادة أم.

ونقل القرطبى عن الماوردى أن الله تعالى امتن بأن بعث نبيًا أميًّا لثلاثة أسباب :

١ - أحدها لموافقته ما تقدمت به بشارة الأنبياء ، والآخر مشاكلة حاله لأحوال العرب فيكون أقرب إلى موافقتهم ، والثالث لينتفى عنه سوء الظن فى تعلمه ما دعا إليه من الكتب التى قرأها والحكم التى تلاها .

ثم عقب بقوله : وهذا دليل معجزته وصدق نبوته[1] .

٢ - أو هو فى رأى ابن عربى منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا القراءة[2] .

٣ - أو هو كما ذكر النحاس منسوب إلى مكة أم القرى[3] .

فأى هذه الآراء نختار ؟

أو هل نستطيع أن نعرض للبحث والمناقشة رأيًا جديدًا ؟

٢ - أما أن النبى ﷺ كان لا يكتب ولا يقرأ ، فإن هذا حق لا ريب فيه ؛ لأن الله تعالى يقول :

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذًا لارتاب المبطلون ﴾[4] .

فكانت هذه الخلة من الأدلة القاطعة بأن القرآن من عند الله ، لم ينقل فيه خبرًا أو قصة أو حكمًا أو تشريعًا أو شيئًا ما من كتاب سماوى أو غير سماوى .

ولكن المشركون ركبوا أهواءهم ، وجحدوا الحق الذى استبان لهم ، فاتهموا النبى عليه الصلاة والسلام بما هو منه براء ، إلا أنهم لم يجرءوا على وصفه بمعرفة الكتابة والقراءة ، ولم يستطيعوا تكذيب قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى ١٨ / ٩٢

(٢) تفسير القرطبى ٧ / ٢٩٨

(٣) تفسير القرطبى ٧ / ٢٩٨

(٤) سورة العنكبوت ٤٨

وقصارى ما سول لهم الافتراء زعمهم أن النبى طلب من آخرين أن يكتبوا له أساطير الأولين فكتبوها له ، لكنهم يعلمون أنه لا يقرأ ولا يكتب فلا يستطيع الانتفاع بما كتب له ، فلم يكن بد من افتراء آخر هو أن الذين دونوا له هذه الأساطير كانوا يقرءونها على سمعه صباحًا ومساءً ليحفظها ، ثم يذيعها فى الناس .

ولقد كذبهم القرآن وأحبط افتراءهم ، قال تعالى :

﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلمًا وزورًا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض ، إنه كان غفورًا رحيمًا ﴾[1] .

فلو أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يقرأ ويكتب لجهر المشركون بأنه كتب بيده أو نقل بنفسه ، ولو حدث هذا ما كانت هناك حاجة إلى أن يتلى عليه ما كتبه هو أو يقرأ عليه ما نقله هو ، لأنه يكتب بيده ويقرأ بعينيه ، ويتلو من صفحته التى نقلها ، وإنما يحتاج إلى أن يقرأ له غيره من لا يعرف القراءة والكتابة .

٣ – وأما أنه وُصف بالأمى لأنه لم يكن يكتب ويقرأ فقد سبق فى مناقشتى للمعاجم اللغوية ولآراء المفسرين أنه لا علاقة بين كلمة أمى والجهل بالقراءة والكتابة .

ولقد يعزز هذا ما حَدَّث به النبى ﷺ من بدء نزول الوحى عليه ، إذ قال إن جبريل جاء بنَمط من ديباج فيه كتاب[2] ، فقال له : اقرأ ، فقال النبى ما أنا بقارئ ، فغته[3] به حتى ظن أنه الموت ، وتكرر هذا ثلاث مرات ، فلما كانت

---

(١) سورة الفرقان ٤ – ٦ أكتتب : كتب أو طلب من غيره أن يكتب له ، والمعنى الأول لا يصح هنا لأن الذى يكتب بيده لا يحتاج إلى من يقرأ له ما كتب بكرة وعشيا فلم يبق إلا المعنى الثانى لأنه هو المتفق مع بقية الآية .

(٢) نمط : وعاء كالسفط . فيه كتاب : قال بعض المفسرين فى قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » أنه إشارة إلى الكتاب الذى جاء به جبريل حين قال له اقرأ.

(٣) غته : غطاه : حبس نفسه .

الرابعة ، قال النبى : ماذا أقرأ ؟ ولم يقل ذلك إلا اتقاء أن يصنع به ما صنع من قبل ، فقال جبريل :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

فقرأها النبى ﷺ ، فكأنما كتبت فى قلبه كتابًا .

فلو أن كلمة (أمى) تؤدى معنى الجاهل بالقراءة ، لكان رد النبى على جبريل هو : أنا أمى ، أو كيف أقرأ وأنا أمى ؟ بدلا من قوله فى كل مرة : ما أنا بقارئ ، أو : ما أقرأ .

وأرى أن كلمة (أمى) فى الآيتين معناها الرسول الذى لا ينتمى إلى بنى إسرائيل ، إذ كان اليهود يزعمون أن الرسالة مقصورة عليهم ، وليس من حق رجل غير إسرائيلى أن يبعثه الله ، فكذبهم الله فى زعمهم هذا بأن ابتعث من العرب رسولا جعله خاتم أنبيائه ورسله ، وجعل رسالته عامة للبشر جميعًا ، خالدة إلى يوم القيامة .

قال تعالى بعد ذكر اليهود وعصيانهم لله :

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورًا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليمًا ﴾[1] .

وفى هذا نقض لزعمهم أن الرسالة لا تكون إلا فى بنى إسرائيل ، لأن نوحًا وهودًا وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وإسماعيل وإسحاق وكثيرًا من الأنبياء لم يكونوا من نسل إسرائيل[2] .

وقال تعالى فى بيان عنادهم وضلالهم وتعصبهم المقيت :

﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل

---

(١) سورة النساء ١٦٣ - ١٦٤

(٢) يعقوب هو أول من سمى إسرائيل كما فى التوراة

يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين . بئس ماشتروا به ، أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين ﴾[1] .

وينبغى أن نتنبه إلى أن كلمة (أمى) جاءت مرتين فى سورة واحدة وما قبلها وما بعدها قصص عن بنى إسرائيل[2] ، وهذا يرجح أن المقصود بالأمى هنا غير الإسرائيلى .

---

(١) سورة البقرة ٨٩ - ٩٠

(٢) سورة الأعراف ١٠٣ - ١٧١

رابعا : معنى كلمة أمية فى الحديث الشريف

وردت كلمة أمية فى قوله ﷺ : « إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا ، وأشار إلى أنه تسعة وعشرون يوما أو ثلاثون يوما »[١] .

وجاء فى شرح ابن حجر العسقلانى للحديث أن المراد بالأمية النسب إلى أمة العرب ، لأنها لاتكتب ، أو النسب إلى الأم ، أى أنهم على أصل ولادة أمهم ، أو لأن المرأة هذه صفتها غالبًا ، أو النسب إلى أم القرى .

وقوله لانكتب ولا نحسب تفسير لكونهم كذلك .

وقيل للعرب أميون لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة .

والمراد بالحساب هنا حساب النجوم ، ومعرفة سيرها ، ولم يكونوا يعرفون من ذلك إلا النزر اليسير ، فعلق رسول الله الحكم بالصوم وغيره بالرؤية ، لرفع الحجر عنهم فى معاناة حساب سير النجوم[٢] .

ولقد مضى تفنيد العلاقة بين الأمية وجهل القراءة والكتابة فى مناقشة بعض اللغويين وبعض المفسرين ، والرد على دعوى النسب إلى أمة العرب أو إلى الأم أو إلى أم القرى .

فما معنى الأمية هنا ؟

يجدر بنا قبل أن نتعرف معنى الأمية هنا أن نقف على معنى الأمة فى هذا الحديث .

والذى أرجحه أن النبى ﷺ لم يقصد بالأمة هنا الأمة الإسلامية كلها حاضرها فى عصره ومستقبلها من بعده ، لأن فى الفرس والروم وغيرهم ممن

---

(١) صحيح البخارى ٣ / ٣٥ والنهاية فى عريب الحديث لابن الأثير ٦٨ والمنهل العذب المورود بشرح سنن أبى داود لمحمود خطاب ١٠ / ٣١

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ٥ / ٢٨ وذكر الزمخشرى أن النبى أمى نسبة إلى أمة العرب حين كانوا لا يحسنون الخط ويخط غيرهم من سائر الأمم ، ثم بقى الاسم وإن استفادوا الكتابة فيما بعد ، وقيل نسب إلى الأم أى كما ولدته أمه . الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى ١ / ٢٥

أسلموا كثيرا يكتبون ويقرءون بل قصد بالأمة العرب .

فما المراد من وصف العرب بالأمية ؟

لقد سبق فى تأويل الآيات القرآنية كلها أن العرب أميون أى أمة أخرى غير اليهود ليس لهم كتاب سماوى قبل نزول القرآن الكريم .

بقى بعد هذا أن العرب لا يكتبون ولا يحسبون ، فما معنى ذلك ؟

معناه أن العرب لم يكونوا يجرون على نظام فلكى فى حساب الأيام والشهور ، والأعوام وكتابتها وتدوينها ، بل كانوا يعتمدون على رؤية القمر ، ويحسبون الشهر كما بين الحديث الشريف بإشارة الأصابع تارة تسعة وعشرين يومًا وتارة ثلاثين يومًا .

خامسًا : النتائج العامة

لعل هذا البحث قد تكشف عن عدة نتائج :

الأولى : أن العرب كان فيهم كتاب وقرّاء منذ العصر الجاهلى فى أقاليم شتى ، فلم يكونوا يجهلون الكتابة والقراءة تلك الجهالة التى رددتها الأقلام والألسنة ، ومازالت ترددها .

الثانية : أن كلمة أميين التى وردت فى أربع آيات من القرآن الكريم لا تعنى الجاهلين بالقراءة والكتابة .

١ - فهى فى الآية الكريمة :

﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ .

تعنى أناسًا من غير بنى إسرائيل تهوّدوا ، ولم يكونوا يحسنون قراءة التوراة ، لأنها شاقة عليهم ، أو لأن الأحبار صرفوهم عنها بأكاذيبهم التى لفقوها ، وزعموا أنها من التوراة .

٢ - وفى قوله تعالى :

﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾ .

تعنى أناسًا غير اليهود لا كتاب لهم وهم مشركو العرب ، وذلك أن الدعوة عامة تشمل أهل الكتاب ومن ليس لهم كتاب .

٣ - وفى قوله سبحانه :

﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ .

تنصب على غير اليهود من عرب وغير عرب ، لأنهم جميعًا فى نظر اليهود مشركون لا يدينون بكتاب سماوى ولأنهم جميعًا من غير بنى إسرائيل ، أى أنهم أمم أخرى ، ولو جاز النسب هنا إلى الجميع لجاءت الكلمة هكذا (الأمميين) .

٤ - وفى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ .

تدل على العرب لأن اليهود كانوا يزعمون أنهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه وشعبه المختار ، ويدعون أن كتب الوحى لا تتنزل إلا عليهم ، فكذب القرآن الكريم مزاعمهم ، وبعث الله تعالى خاتم أنبيائه من غيرهم ، أى من أمة أخرى غير بنى إسرائيل هم العرب ، ولم يكن العرب قبل نزول القرآن الكريم أصحابَ كتاب سماوى .

وإنه ليعزز أن المراد بالأميين فى الآيات الأربع غير اليهود ما ورد فى العهد القديم وفى العهد الجديد من دلالة على الأمم الأخرى التى ليست عبرية بالكلمة العبرية (جوييم) أى أمم أو أميين أو أجانب .

(ا) أما العهد القديم فقد جاء فيه : نحن اشترينا إخوتنا اليهود الذين بيعوا للأمم حسب طاقتنا ... أما تسيرون بخوف إلهنا بسبب تعيير الأمم أعدائنا ... وكان على مائدتى من اليهود والولاة مئة وخمسون رجلا فضلا عن الآتين إلينا من الأمم الذين حولنا [١]

وجاء فيه : « عندما أودُّ سبىْ يهوذا وأورشليم أجمع كل الأمم ، وأحاكمهم على شعبى وميراثى إسرائيل الذين بددوهم بين الأمم ، وقسموا أرضى ، وألقوا قرعة على شعبى[٢] .

وجاء فيه قول سليمان : « والآن أيها الرب إله إسرائيل احفظ لعبدك داود ما كلمته به ... واغفر وأعط كل إنسان حسب كل طرقه كما تعرف قلبه ... وكذلك الأجنبى الذى ليس هو من شعبك إسرائيل وقد جاء من أرض بعيدة من أجل اسمك العظيم ويدك القوية ، فمتى جاءوا فى هذا البيت فاسمع وافعل حسب ما يدعوك الأجنبى[٣] » .

وجاء فى سفر التثنية : « للأجنبى تقرض بالربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا »[٤] .

---

(١) سفر نحميا الإصحاح الخامس ٨ ، ٩ ، ١٧

(٢) سفر يوئيل الإصحاح الثالث ١ - ٣

(٣) أخبار اليوم الثانى الإصحاح السادس ١٦ ، ٣٠ ، ٣٢

(٤) سفر التثنية ٢٣ / ٢٠

وكذلك : « الأجنبى تطالب ، وأما ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدك منه »[١] .

وجاء فى سفر اللاويين : « إذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد »[٢] .

وكذلك : « لا تتسلط عليه بعنف ، وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم ... وأيضًا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم فمنهم تقتنون »[٣] .

ووردت فى عدة مزامير من العهد القديم بذلك المعنى ، مثل : « أعقبك الأمم ميراثًا لك ، وأفاض الأرض ملكًا لك »[٤] .

ومثل : « أيها العلى ... عند رجوع أعدائى إلى خلف يسقطون ، لأنك انتهزت الأمم ، وأهلكت الشرير ، وتورطت الأمم بالحفرة التى عملوها ، كل الأمم الأشرار الناسين لك ، ثم يارب لتحارب الأمم قدامك »[٥] .

وجاء فى التلمود : الإسرائيلى معتبر عند الله أكثر من الملائكة ، واليهود جزء من الله ، فإذا ضرب أمى - إسرائيليا فكأنه ضرب العزة الإلهية »[٦] .

ومثل : « وأنت يارب إله الجنود إله إسرائيل انتبه لتطالب كل الأمم ، كل غادر أثيم لا ترحم أما أنت يارب فتضحك بهم ، تستهزئ بجميع الأمم »[٧] .

ومثل « لماذا تقول الأمم أين هو إلههم ؟ لتعرفْ عند الأمم قدام أعيننا نقمة دم عبيدك المهراق[٨] » .

ومثل : « خلصنا أيها الرب إلهنا ، واجمعنا من بين الأمم لنحمد اسم

---

(١) سفر التثنية ١٥ / ٣

(٢) سفر اللاويين ٢٥ / ٣٩

(٣) سفر اللاويين ٢٥ - ٤٣ - ٥٠

(٤) المزمور الثانى ٨

(٥) المزمور التاسع فى عدة مواضع.

(٦) الكنز المرصود فى قواعد التلمود ٤٨ روهلنج

(٧) المزمور التاسع والخمسون ٦ ، ٩

(٨) المزمور التاسع والسبعون ١٠ ، ١١

قدسك ، ونتفاخر بتسبيحك[١] » .

(ب) وأما العهد الجديد فقد ورد فيه : « لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس قدام الجميع : إن كنت وأنت يهودى تعيش أمميًا لا يهوديًا ، فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا ؟ نحن بالطبيعة يهود ، ولسنا من الأمم خطاة » .

وترددت كلمة الأمم فى الرسالة نفسها خمس مرات[٢] .

وورد فيه أيضًا : « وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلا كالأمم ، فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم[٣] » .

وجاء فيه : « فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس ، فإن هذه كلها تطلبها الأمم »[٤] .

وجاء فيه : « هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا : إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا ، بل اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة[٥] » .

وهذا يدل على أن الذين تنصروا من بنى إسرائيل مازالوا يطلقون على الآخرين كلمة الأمم أو الأمميين .

وإذ كانت القاعدة فى لسان العرب النسب إلى المفرد لا إلى الجمع وردت كلمة أميين فى اللغة العربية بدلا من أمميين .

الثالثة : إن وصف النبى ﷺ بأنه كان لا يكتب ولا يقرأ لا ينبغى الاستدلال عليه من قوله تعالى :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ﴾ .

ولا من قوله سبحانه :

﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى ﴾ .

---

(١) المزمور السادس بعد المائة ٤٧

(٢) رسالة بولس إلى غلاطية الإصحاح الثانى ١٥ ، ١٦

(٣) إنجيل متى الإصحاح السادس ٨

(٤) إنجيل متى الإصحاح السادس ٣٢ – ٣٣

(٥) إنجيل متى الإصحاح العاشر ٧

بل ينبغى أن نستدل عليه من آية أخرى هى قوله عز وجل :
﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ .

وذلك أن كلمة أمى فى هاتين الآيتين تعنى أن النبى عليه الصلاة والسلام عربى ، فهو ليس من بنى إسرائيل ، وقد كان اليهود يزعمون أن النبوة لا تكون إلا منهم وفيهم ، ويطلقون على من عداهم من العالم كلمة الأجانب أو الأمم أو الأميين .

وإذ كانت القاعدة فى اللغة العربية أن يكون النسب إلى المفرد ، فإن الأميين هم الأميون .

أما بعد .. فإننى أرجو من المجامع اللغوية فى الأمة العربية أن تنقب عن كلمة أخرى غير كلمة أمى لتطلقها على من يجهل القراءة والكتابة .

(لا) النافية للمساواة
أصلية لا زائدة*

تمهيد

كثر فى القرآن الكريم نفى المساواة بين شيئين أو أكثر بهذين الأسلوبين .

الأول : أن تتقدم أداة النفى على الفعل الدال على المساواة ، ويذكر بعده الشيئان أو الأشياء التى لا تتساوى كما فى قوله تعالى :

﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غَيْرُ أُولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴾[١] .

وفى قوله سبحانه :

﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾[٢] .

وقوله عز وجل :

﴿ وما يستوى البحران : هذا عذبٌ فرات سائغٌ شرابُهُ ، وهذا مِلْحٌ أُجاج ﴾[٣] .

وقوله تعالى :

﴿ وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ، لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا مِنْ بَعْدُ وقاتلوا ، وكُلًّا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾[٤] .

---

* بحث ألقيته فى مؤتمر المجمع

(١) سورة النساء ٩٥

(٢) سورة المائدة ١٠٠

(٣) سورة فاطر ١٢

(٤)سورة الحديد ١٠

أى لا يستوى ثوابُ الذين أنفقوا أموالهم قبل فتح مكة وقاتلوا فى سبيل الله وثواب الذين أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا ، وهذا الشق محذوف يدل عليه قوله تعالى :

﴿ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكُلًّا وعد الله الحسنى ﴾ .

وقوله سبحانه :

﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[1] .

وقد يحل محل أداة النفى استفهام يؤدى معنى النفى ، مثل قوله تعالى :

﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ ﴾[2] .

الثانى : أن يتقدم ذكر الشيئين أو الأشياء المراد نفى المساواة بينها ، ويجىء نفى التسوية بعد ذلك ، مثل قوله تعالى :

﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[3] .

ومثل قوله سبحانه :

﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تَذكرون ﴾[4] .

ومثل قوله تعالى :

﴿ أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا ؟ لايستوون ﴾[5] .

وفى كلا الحالين نجد أن النفى تحقق فى هذه الآيات وأمثالها بأداة نفى

---

(١) سورة الحشر ٢٠
(٢) سورة الرعد ١٦
(٣) سورة التوبة ١٩
(٤) سورة هود ٢٤
(٥) سورة السجدة ١٨

واحدة . ولا فرق بين أداة النفى والاستفهام المراد به النفى .

لكن فى القرآن الكريم نفيًا للمساواة بأسلوب آخر ، إذ وقعت (لا) النافية مكررة بعد عطف فى ثلاث آيات فرأى بعضهم أنها مزيدة ، والحق أنها أصيلة .

الآية الأولى

قال تعالى :

﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع مَن يشاءُ ، وما أَنت بِمُسْمِعٍ مَنْ فى القبور ، إن أَنت إلا نذير** ﴾[1] .

فنفت (ما) فى الآية الكريمة الأولى المساواة بين اثنين متضادين هما الأعمى والبصير ، سواء أكان المراد بالعمى والبصر معناهما الحقيقى أم المراد المعنى المجازى لكل منهما وهو الكفر والإيمان ، وهذا النفى جاء على الأسلوب المعهود .

لكن النفى جاء بعد ذلك فى أسلوب آخر ﴿ ولا الظلمات ولا النور ﴾ و ﴿ ولا الظل ولا الحرور ﴾ و ﴿ وما يستوى الأحياءُ ولا الأموات ﴾ .

فلماذا جاءت (لا) مكررة بعد الظلمات ، وبعد الظل ، وبعد الأحياء ؟

لقد تتبعت ما ذكره بعض المفسرين ، وآثرت أن أثبته مرتبًا ترتيبًا زمنيًا ، ثم أتأمله ، لعلنى أرجح بعضه ، أو لعلنى أعرض رأيًا آخر .

١ - ذكر ابن جرير الطبرى (٣١٠ هـ) رأيين :

أولهما : أن بعض نحاة البصرة ذهبوا إلى أن (لا) تشبه أن تكون زائدة ، لأنك لو قلت : لا يستوى عمرو ولا زيد فى هذا المعنى لم يجز إلا أن تكون (لا) زائدة .

والثانى : أن غيرهم قال : إذا لم تدخل (لا) مع الواو فإنما لم تدخل

---

(١) سورة فاطر ١٩ - ٢٣

اكتفاء بدخولها فى أول الكلام ، فإذا دخلت فإنه يراد بالكلام أن كل واحد منهما لا يساوى صاحبه ، فمعنى الكلام إذا أعيدت (لا) مع الواو عند صاحب هذا القول لا يساوى الأعمى والبصير ، ولا يساوى البصير الأعمى ، فكل واحد منهما لا يساوى صاحبه [١] .

٢ – وذكر الزمخشرى (٥٣٨ هـ) أن (لا) لتأكيد معنى النفى [٢] .

٣ – ونقل القرطبى (٦٧١ هـ) عن الأخفش سعيد أن (لا) زائدة ، والمعنى ولا الظلمات والنور ولا الظل والحرور [٣] .

٤ – وقال النيسابورى (٧٢٨ هـ) إن (لا) كررت فى المثال الأخير دون الأول ، لأن المنافاة بين العمى والبصر ليست ذاتية كما فى سائرها ، وقد يكون شخص واحد بصيرًا بإحدى العينين أعمى بالأخرى [٤] .

٥ وذهب أبو حيان الأندلسى (٧٥٤ هـ) إلى أن (لا) زائدة لتأكيد النفى ، وحكى عن ابن عطية أن دخولها يفيد التكرار ، كأنه قال : ومايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ولا الأموات والأحياء ، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثوانى ، ودل مذكور الكلام على متروكه .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢ / ٨٥

(٢) الكشاف ٣ / ٢٧٣

(٣) تفسير القرطبى ١٤ / ٣٣٩

(٤) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٢٢ / ٨٤ وقال : قدم الأشراف فى مثلين وهو الظل والحى وآخر فى الآخرين ، فذهب أهل الظاهر إلى أن ذلك لرعاية الفواصل ، وذهب المحققون إلى أنهم كانوا قبل البعث فى ظلمة الضلال فصاروا إلى نور الإيمان فى زمان محمد ﷺ ، فلهذا الترتيب قدم مثل الكافر وكفره على مثل المؤمن وإيمانه . ولما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب ، لأن رحمته سبقت غضبه . ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى ، وشابه الأموات . فى عدم إدراك الحق ، فقال : « وما يستوى الأحياء » أى المؤمن الذى آمن بما أنزل الله و« الأموات » الذين تليت عليهم الآيات ولم تنجع فيهم البينات ، فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياتهم قبل ممات الكافرين المعاندين . ووحد الأعمى والبصير لأن المراد أن أحد الجنسين لا يساوى جنس الآخر من جهة العمى والبصر ولعل فردًا من أحدهما قد يساوى الفرد الآخر من جهة أخرى .

وكثر الكلام فى إفراد الظل والحرور ، وإنما جمع الظلمات والنور ووجد النور لأن الحق واحد والشبهات كثيرة ، وإنما جمع الأحياء والأموات لأن المراد أن أحد الصنفين لا يساوى الآخر ، سواء قابلت الجنس أو قابلت الفرد بالفرد .

ثم رد أبو حيان على هذا الرأى بقوله : وما ذكر غير محتاج إلى تقديره ، لأنه إذا نفى استواء الظلمات والنور فأية فائدة فى تقدير نفى استوائهما ثانيًا وادعاء محذوفين [١] .

٦ - أما ابن كثير (٧٧٤ هـ) فإنه لم يعرض للحرف لا[٢] .

٧ - وأما الزركشى (٧٩٤ هـ) فإنه نقل عن ابن عطية أن (لا) دخلت على نية التكرار ، كما سبق فيما نقله عن أبو حيان الأندلسى[٣] .

٨ - ثم كتب فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج بحثًا قيما مفصلا أثبت فيه أن النفى فى هذه الآيات مسلط على الأفراد نفسها ، لأن الظلمات الحقيقية الحسية متعددة متفاوتة قوة وضعفًا وشدة وخفة ، وكذلك الظلمات المعنوية التى جعلت تلك تمثيلا لها وهى الضلالات ، فهى أنواع متفاوتة أيضًا ، وكل من النور الحسى المعهود والمعنوى الذى هو الهداية والرشاد له أفراد متفاوتة قوة وضعفًا .

ومثل هذا يقال فى الظل والحرور ، فهما مختلفان حسيًّا شدة وخفة ، أى أن لكل منهما أفرادًا متفاوتة فى ذلك . وقد قال العلماء إن المقصود بهما فى الآية الإشارة إلى المصير الأخروى وما يلقاه الإنسان فيه من الجزاء ، فهما تمثيل للثواب والعقاب ، وكل من الثواب والعقاب درجات متفاوتة تفاوتًا عظيمًا .

وكذلك الحال فى الأحياء والأموات وما جعل الأحياء والأموات تمثيلا لهم وهم المؤمنون والكفار ، كل منهم ذوو مراتب ودرجات .

وإذا كان ذلك كذلك أمكن أن يحمل نفى الاستواء فى كل واحد من هذه المذكورات على أنه نفى استوائه فى نفسه ، أى نفى تساوى أفراده ذاتها ، ويكون هذا أولى وأرجح مما قيل من زيادة (لا) لأنه يحفظ أصالتها ، ويوفر عليها معناها [٤] .

---

(١) البحر المحيط ٧ / ٣٠٨

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٢

(٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٣ / ١٢٣ و ٤ / ٣٥٧

(٤) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوى الثالثة والثلاثين ٨٣

تعقيب

١ - هكذا تبين أن الآراء السابقة تدور فى عدة اتجاهات : لأن (لا) إما زائدة أو شبه زائدة ، وإما لتأكيد النفى ، وإما أصيلة والنفى منصب على كل كلمة بعدها لأن الظلمات درجات ولأن النور درجات ، وإما أصيلة تؤدى معنى مفهومًا من السياق ولكن ما بعدها محذوف دل عليه المذكور .

فأما القول بزيادتها أو شبه زيادتها فإنه مرفوض ، لأن القرآن الكريم وهو ذروة البلاغة أسمى من أن يقع فيه حرف مزيد أو كلمة مقحمة .

فإن قيل إن الزيادة لغرض بلاغى كان هذا القول دليلًا على الأصالة واستبعادًا للزيادة ، لأن الغرض البلاغى لا يتم بغير ما قيل إنه مزيد .

وأما القول بأنها لتوكيد النفى فإنه مردود بأن هذا التوكيد لم يجئ فى نفى المساواة بين الأعمى والبصير ، فلماذا جاء فى نفى المساواة بين ما بعدهما ؛ ولوأنها مكررة لتوكيد النفى لوافق جميع المفسرين على هذا القول .

وأما الحكم بأنها أصيلة جاءت لنفى المساواة بين ما تدل عليه كل كلمة بعدها من درجات ودركات فإننى أرى أنه لا يلائم الغرض من الآيات الكريمة ، لأنها تمدح الإيمان وترغب فيه وتشوق إليه ، وتذم الكفر وتنفر منه وتحذر من عواقبه بتمثيل حسى لا شك فيه هو أن البصير والأعمى لا يتساويان ، وأن النور والظلام متناقضان ، وأن الظل والحر متضادان ، وأن الحى والميت متباينان ، فكذلك الإيمان والكفر . ومعنى هذا أنه ليس المراد من الآيات الكريمة أن النور درجات وأن الظلام درجات ، ولا أن الظل طبقات وأن الحر طبقات ، ولا أن الأحياء أصناف وأن الموتى أصناف ، لأن هذا معناه أن المؤمنين ذوو درجات وأن الكفار أصحاب دركات ، وهذا حق ، لكنه لا يفيد فى هذا المقام مقام الترغيب فى الإيمان وبيان آثاره الطيبة الحميدة والتنفير من الكفر وتبيان جرائره الخبيثة .

وإذا كان المؤمنون أصحاب درجات عالية تناسب إيمانهم بالله وطاعتهم له ، فإن الكفار لا يدينون بأنهم أصحاب دركات تناسب كفرهم وأعمالهم ، ولو أنهم آمنوا بهذا ، فإن إيمانهم به مقطوع عن التفرقة المحسوسة بين هداية الإيمان وضلال الكفر التى مثلتها الآيات الكريمة بأربعة أمثلة لا يمترى أحد فى الإقرار بتباينها .

٢ - وكنت قد فكرت طويلا فى هذا الأسلوب ، ثم سنح لى رأى استرحت إليه ، فلما تتبعت آراء المفسرين وجدت ابن عطية قد أشار إلى هذا الرأى[١] ، فازددت به اقتناعًا ، وهو - والله أعلم - أن فى الكلام محذوفًا دل عليه السياق ، والكلام بغير حذف هو ، وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ، ولا الأموات والأحياء . ومن عجب أن رأى ابن عطية ظل مجهولا أو مغمورًا هذا الزمان الطويل .

وقد يبدو هنا سؤال هو : إذا كانت المساواة بين الظلمات والنور قد نفيت فلماذا كرر هنا النفى بين النور والظلمات ؟

وإذا كان نفى المساواة بين الظل والحرور قد وقع فلماذا كرر هذا النفى بين الحرور والظل ؟

وإذا كان نفى المساواة بين الأحياء والأموات قد حدث ، فلماذا كرر النفى بين الأموات والأحياء ؟

أليس فى النفى الأول ما يغنى عن الثانى ؟

والجواب عن هذا أن المراد بنفى المساواة بين الظلمات والنور كما فى الآية الكريمة هو الدلالة على أن الظلام لا يستطيع أن يتسامى إلى النور فى إشراقه وهدايته وجماله ونفعه وارتياح النفوس له وشوقها إليه ، ومن هذا يتبين أن وجه الشبه مقصور على النور ..

---

(١) كما ذكر أبو حيان الأندلسى فى رقم (٥) والزركشى فى كتابه البرهان ٣ / ١٢٣

أما نفى المساواة المقدر بين النور والظلمات فإن المراد منه أن النور لا يمكن أن يهبط إلى ما يتصف به الظلام من قتام وتضليل ووحشة ومجلبة للضيق والكآبة والحيرة والمعاطب ، فوجه الشبه هنا مقصور على الظلام .

كذلك لا يمكن أن يهبط الظل إلى درك الحر اللافح الخانق الداعى إلى الضجر والضيق والسقم ، فوجه الشبه هنا مقصور على الحر ، ولا يمكن أن يسمو الحر إلى مقام الظل البارد المنعش الشارح للصدور الملائم للحياة الطيبة والعمل المثمر ، فوجه الشبه هنا مقصور على الظل .

وكذلك لا ينزل الحى إلى أن يساوى الميت فى فقدانه للحياة ومخافة الناس من جثته ومسارعتهم إلى دفنه ، فوجه الشبه هنا مقصور على الميت ، ولا يستطيع الميت أن يشبه الحى المتحرك النامى المستمتع بمظاهر الشعور كلها ، أى أن وجه الشبه مقصور على الحى .

ومن هذا كله يتبين أن الإيمان والكفر متباينان أشد التباين ، فلا المؤمنون يشبهون الكفار فى جحودهم لربهم وفى ضلالهم وفى معصيتهم لخالقهم وفى غضبه عليهم وفى عقابهم المتوقع ، ولا الكفار يشبهون المؤمنين فى إيمانهم بربهم ، وفى اهتدائهم لطاعته ، وفى رضوانه عليهم ، وفى ثوابهم المأمول .

والغرض من هذا توكيد المخالفة وزيادة توضيح المباينة ، كما نقول : ليس الناجح كالراسب ، ولا الراسب كالناجح ، ونحن نريد أن الناجح لا يشبه الراسب فى إخفاقه وحسرته ، وأن الراسب لا يشبه الناجح فى ظفره وبهجته .

والحذف هنا ضرب من البلاغة القرآنية التى تستغنى بالمذكور عن المحذوف المفهوم .

وقد يسترعى الانتباه أن الآيات الكريمة نفت مساواة الأدنى للأعلى فى حالتين هما العمى والبصر والظلام والنور ، ونفت مساواة الأعلى للأدنى فى حالتين هما الظل والحرور ، والحياة والموت . وحينما نقدر المحذوف يتقدم

الأدنى تارة ويتقدم الأعلى تارة ، والغرض من التكرير بتقديم الأدنى مرة وتقديم الأعلى مرة توكيد المنافاة ، وإبطال المشابهة على أى وجه من الوجوه ، سواء أتقدم الأعلى أم تقدم الأدنى .

ولا شك أن الأسلوب الشائع فى القرآن الكريم وفى غيره يجرى على نفى مشابهة الناقص للكامل ، ولكن بعض الآيات الكريمة جاءت لتنفى عن الكامل شبهه بالناقص مثل قوله تعالى :

﴿ إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى مُحَرَّرًا ، فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت ربِّ إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضَعتْ ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مَرْيم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾[1] .

فتحسرت لأن أملها فى أن يكون ما فى بطنها ذكرًا أخفق ، وقد نذرته محررًا لسدانة المسجد الأقصى ، وعبرت عن حسرتها بأنها وضعت أنثى ، وبأن الذكر فى قوته وجلده على العبادة وقدرته على خدمة البيت ليس كالأنثى فى ضعفها ولينها وقلة احتمالها ، وكان المعهود أن تقول : وليست الأنثى مثل الذكر .

ومثل قوله سبحانه :

﴿ يانساء النبى لَسْتُنَّ كأَحد من النساء إن اتقيتن فلا تَخْضَعْن بالقول فيطمعَ الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفًا ﴾[2] .

جاءت الآية الكريمة على هذا النسق ، ولم تجئ هكذا : ليس أحد من النساء مثلكن .

أى أنكن يا نساء النبى لستن فى شرف مكانتكن وعلاء قدركن ونظرة المسلمين والمسلمات إليكن مثل النسوة الأخريات فى مكانتهن العادية وافتقارهن إلى فضلكن وسابقتكن وصلتكن برسول الله ﷺ .

---

(١) سورة آل عمران ٣٥ - ٣٦
(٢) سورة الأحزاب ٣٢

وكذلك قوله تعالى :

﴿ أفمن يَخْلُقُ كمن لا يخلق أفلا تَذَكَّرون ﴾[١] .

فقدم الأعلى فى نفى المشابهة ، لأن المراد هل يستوى الله تعالى وهو الخالق القوى القادر بآلهة تعبدونها وهى مصنوعة مخلوقة عاجزة عن الخلق وعن النفع والضر ؟

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أفمن اتَّبَعَ رضوان الله كمن باءَ بسَخَط من الله ، ومَأْواهُ جهنم وبئس المصير ﴾[٢] .

أى هل يستوى من آمن بالله وأطاعه واستحق ثوابه ورضاه بمن كفر بالله وعصاه واستحق سخطه وعقابه ؟

وقوله تعالى:

﴿ أفمن وعدناه وعدًا حسنًا فهو لاقيه كمن مَتَّعْناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضَرين ﴾[٣] .

أى هل يستوى من وعدناه ثوابنا الحق فيلقاه ومن عصانا فغضبنا عليه واغتر بنعيم الحياة الدنيا ، وهو فى القيامة من أصحاب النار ؟

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا . لا يستوون ﴾[٤] .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجّار ﴾[٥] .

ففى هذه الآيات الكريمة نفى المساواة أو المشابهة بين الأدنى والأعلى مع تقديم الأعلى فى الذكر .

---

(١) سورة النحل ١٧

(٢) سورة آل عمران ١٦٢

(٣) سورة القصص ٦١

(٤) سورة السجدة ١٨

(٥) سورة ص ٢٨

ولهذا الأسلوب نظائر فى الشعر القديم . منها قول المرقش الأكبر :

لسنا كأقوام مطاعمهم   كسب الخنا ونَهكةُ المحرم[1]

فنفى عن الأعلين الذين يتعففون فى كسب المال شبههم بالأدنين الذين يسلكون إلى كسب المال أى طريق ، وكان الأسلوب الشائع أن يقول ليس أصحاب الفساد وانتهاك الحرم مثلنا .

ومنها قول معن بن أوس فى شكواه من ابن عمه :

ويسعى إذا أبنى ليهدم صالحى   وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم

وكان المتوقع أن يقول وليس الذى يهدم كالذى يبنى ، ولكنه أراد بهذا الأسلوب أن الذى يبنى مجد القبيلة يتصف بالنفع والغيرة والإصلاح والإيثار والشرف فلا يشبه الذى يهدم مجد القبيلة ، لأنه يتصف بالتخريب والتدمير والحمق والفساد والدمار .

وقول النجاشى فى رده على قصيدة كعب بن جعيل :

جعلتم علياً وأشياعه   نظير ابن هند أما تستحونا

فهو يلوم الشاميين على أنهم هبطوا بمكانة على بن أبى طالب إلى منزلة معاوية بن أبى سفيان ولم يقل إنهم ارتفعوا بمعاوية إلى مقام على .

الآية الثانية

قال سبحانه وتعالى :

﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء ، قليلاما تتذكرون ﴾[2] .

فماذا قالوا فى (لا) هنا ؟

---

(١) المفضليات ١٢ / ٤٠ الخنا : الفساد . نهكة المحرم : انتهاك الحرم . أى لا نهجو الناس ليعطونا .

(٢) سورة غافر ٥٨

١ – اكتفى الطبرى بتفسير الآية الكريمة ، وجاء فى تفسيره قوله : لايستوى المؤمنون بالله ورسوله المطيعون لربهم ولا المسىء ، وهو الكافر بربه ، العاصى له ، المخالف لأمره [١] .

ولم يذكر شيئًا عن (لا) فى هذه الآية .

٢ – وصنع الزمخشرى صنيعه[٢] .

٣ – وكذلك صنع القرطبى[٣] .

٤ – أما النسفى (٧٠١ هـ) فقال إنها زائدة[٤] .

٥ – وأما النيسابورى فلم يذكر شيئًا[٥] .

٦ – وأما أبو حيان الأندلسى فقال إنها كررت لتوكيد النفى ، لأن جملة الصلة وما عطف عليها طالت[٦] .

٧ – وأما ابن كثير فلم يذكر شيئاً[٧] .

٨ – وأما أبو السعود (٩٨٢ هـ) فقال مثل أبى حيان ، وزاد عليه أن المقصود نفى مساواة المسىء للمحسن فيما له من الفضل والكرامة ، وقال : هذا الرأى الثانى هو الصواب ، لأن (لا) هنا أصيلة دلت على أن المسىء ، لا يساوى المحسن بعد أن فهم من الآية نفسها أن المحسن لا يساوى المسىء ، لأن التقدير فى :

﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات[٨] .

٩ – ثم ذهب فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج إلى مثل رأيه السابق ، وهو أن المراد نفى استواء المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنفسهم ، لأن

---

(١) تفسير الطبرى ٢٤ / ٥١

(٢) الكشاف ٣ / ٣٧٥

(٣) تفسير القرطبى ١٥ / ٣٢٥

(٤) تفسير النسفى ٢٤ / ٢٥٧

(٥)على هامش الطبرى ٢٤ / ٥٢

(٦) البحر المحيط ٧ / ٤٧٢

(٧) تفسير ابن كثير ٤ / ٨٥

(٨) تفسير أبى السعود ٧ / ٦٣١

أفرادهم كثيرون متفاوتون فى قوة الإيمان والعمل الصالح ، ثم إن المقابل الذى هو المسىء فى العقيدة والعمل له أفراد كثيرون أيضًا متفاوتون فى درجات هذه الإساءة ، فأريد نفى المساواة فيها بينهم بقوله سبحانه « ولا المسىء » . ولا شك أن مجموع هذا وذاك يلزمه انتفاء المساواة بين المحسنين فى العقيدة والعمل والمسيئين فيهما ، فإنه إذا ثبت أن النوع الواحد قد انتفت المساواة فيه نفسه أى انتفى التساوى بين أفراده ، فإنه يلزم انتفاء المساواة بين النوعين أو بين أفراد النوعين بالطريق الأولى . وهذه نتيجة لا يمكن الوصول إليها مع زيادة (لا)[1] .

تعقيب

١ – هكذا مر بعض المفسرين بالآية مرورًا لا ذكر فيه للحرف (لا) وذهب آخرون إلى مثل ما ذهبوا إليه فى الآية السابقة . والتعقيب هنا لا يختلف عن التعقيب هناك[2] .

٢ – والذى أرجحه والله أعلم – أن فى الكلام حذفًا يدل عليه السياق ، وبغير الحذف يكون التعبير هكذا : وما يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين كفروا وعملوا السيئات ، ولا الذين كفروا وعملوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات .

أى أن المؤمنين لا يشبهون الكفار فى ضلالهم وفساد عقائدهم وسوء أعمالهم والعذاب المعد لهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالكفار ، وكذلك لا يشبه الكفار المؤمنين فى اهتدائهم وصواب عقائدهم وطيب أعمالهم واستحقاقهم ثواب الله المعد لهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالمؤمنين ، كماتبين فى الآيات السابقة .

ومن هذا يتضح أن فى الآية محذوفًا دل عليه الكلام الباقى وأغنى عنه ، وقد تقدم التفصيل والتدليل والتعليل فى الآية السابقة .

(١) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوى الثالثة والثلاثين

(٢) نفى التساوى بين أفراد ما بعدها لا يحقق الغرض من الآية وهو نفى المشابهة بين المؤمنين والكفار.

الآية الثالثة

قال تعالى :

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادْفَعْ بالتى هى أَحْسَنُ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم . وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[١] .

١ - قال الطبرى إن (لا) مكررة ، والمعنى ولا تستوى الحسنة والسيئة ، لأن كل ما كان غير مساو شيئًا فالشىء الآخر غير مساويه ، كما أن كل ما كان مساويًا لشىء فذلك الشىء مساو له ، فيقال فلان مساو فلانًا وفلان له مساو ، فكذلك ليس مساويًا لفلان ولا فلان مساويًا له ، فلذلك كررت (لا) مع السيئة ولو لم تكن مكررة معها كان الكلام صحيحًا .

وقد كان بعض نحوى البصرة يقول : يجوز أن يقال (لا) الثانية زائدة توكيدًا ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألَّا يقدرون على شىء من فضل الله ﴾[٢] .

أى لأن يعلم أهل الكتاب ، وكما قال تعالى :

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾[٣] .

وكان بعضهم ينكر قوله هذا فى ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ وفى قوله ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾[٤] .

٢ - وقال الزمخشرى إن الحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما ، فخذ بالحسنةالتى هى أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان ، فادفع بها السيئة التى ترد عليك من بعض أعدائك . ومثال ذلك رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة أن تعفو عنه ، والتى هى أحسن أن تحسن إليه

---

(١) سورة فصلت ٣٤ / ٣٥

(٢) سورة الحديد ٢٩

(٣) سورة القيامة ١ - ٢

(٤) تفسير الطبرى ٢٤ / ٧٤

مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ، ويقتل ولدك فتفتدى ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولى الحميم مصافاة لك .

وقبل (لا) مزيدة ، والمعنى ولا تستوى الحسنة والسيئة .[1]

٣ - وقال القرطبى نقلا عن القراء إن (لا) صلة - زائدة - أى لا تستوى الحسنة والسيئة ، وأنشد :

ما كان يرضَى رسول الله فعلهم والـطيبان أبـو بكر ولا عمـر

أراد (أبو بكر وعمر) أى لا يستوى ما أنت عليه من التوحيد وما عليه المشركون من الشرك[2] .

٤ - وذكر النيسابورى أن (لا) زائدة لتوكيد نفى الاستواء ، والمعنى لا تستوى الحسنة والسيئة قط ، ومثالها الإيمان والشرك ، والحلم والغضب ، والطاعة والمعصية ، واللطف والعنف[3] .

٥ - وذكر أبو حيان الأندلسى رأيين : أحدهما أن (لا) زائدة ، والآخر أنها أصيلة ، لأن الحسنة جنس والسيئة جنس ، فالمعنى إذن ولا تستوى الحسنات لأنها متفاوتة فى أنفسها ، ولا السيئات لأنها متفاوتة أيضًا[4] .

٦ - أما ابن كثير فلم يذكر شيئًا[5] .

٧ - وأما الزركشى فقال إن (لا) تزاد مع الواو بعد النفى ، كما فى هذه الآية، لأن استوى من الأفعال التى تطلب اسمين ، أى لا تليق بفاعل واحد ، نحو اختصم فعلم أن (لا) زائدة .

وقيل إنها دخلت فى السيئة لتحقق أنه لا تساوى الحسنة السيئة ولا السيئة الحسنة . وقال إنها ليست زائدة عند من قال إن جنس الحسنة

---

(١) الكشاف ٣ / ٣٩٢ يتفق الرأى الأول ورأى فضيلة الدكتور تاج .

(٢) تفسير القرطبى ١٥ / ٣٦١

(٣) على هامش الطبرى ٢٥ / ١٠

(٤) البحر المحيط ٧ / ٤٩٨

(٥) تفسير ابن كثير ٤ / ١٠٠

لا يستوى أفراده ، وجنس السيئة لا يستوى أفراده ، وهو الظاهر من سياق الآية ، فليست زائدة ، والواو عطفت جملة على جملة[١] .

٨ – وارتضى فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج ما ارتضاه فى الآيتين السابقتين وهو أن المقصود نفى استواء أفراد الحسنة نفسها ثم نفى استواء أفراد السيئة كذلك ، فإن لكل من الحسنة والسيئة أفرادًا متفاوتة فى القوة والأثر .

وإذا كان الأمر كذلك ثبت بطريق الأولى عدم التساوى بين الحسنة والسيئة[٢] .

تعقيب

١ – تبين أن الآراء التى قيلت هنا لا تختلف عما قيل فى الموضعين السابقين ، فلا مدعاة للمناقشة ، لأن المناقشة السابقة تغنى .

وإذا كان من الحق أن الحسنات متفاوتة القدر والأثر والمثوبة ، وأن السيئات مختلفة الجرم والضرر والعقوبة ، ولهذا جاءت (لا) أصيلة لنفى المساواة بين أفراد ما بعدها ، إذا كان هذا حقًّا فإنه لا يناسب ماتتوخاه الآية الكريمة من تبيين الفرق الجسيم بين الخير والشر ، وبين الحسن والقبيح ، وبين الإحسان والإساءة ، تمهيدًا للأمر بالحلم والصبر والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة ، لأن هذه المقابلة تستل سخائم النفوس ، وتلين القلوب ، وتغرس المودة ، وتوثق صلة الفرد بالفرد وصلة المجموع بالمجموع .

٢ – فأرجح – والله أعلم – أن فى الكلام محذوفًا ، لأن أصله ولا تستوى الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة ، أى لا تستوى الحسنة والسيئة فى شرور السيئة وأذاها وإشعالها للضغن والعداء والانتقام ، ولا تستوى

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٣ / ٧٨ و ٤ / ٣٥٧

(٢) البحوث والمحاضرات للدورة الثالثة والثلاثين

السيئة والحسنة فى محامد الحسنة وطيب آثارها وتأليفها قلوب الأفراد والجماعات .

ولا شك أن التعبير بهذه الصورة يتضمن أيضاً توكيداً لنفى التساوى بين الحسنة والسيئة ، سواء أكان المقصود محامد الحسنة أم مخازى السيئة أم بيان الفروق العظيمة بينهما كما سبق فى الآيات الأولى .

يوم التَّغابن*

جاءت هذه التسمية فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يومَ يجمعكم ليوم الجمع ذلك يومُ التغابن ﴾[١] .

فما معنى هذه الكلمة ؟.

لابد لمعرفة معنى التغابن من أن أعرض ما قاله بعض المفسرين لأنه يمثل رأيهم جميعًا ، ثم أعقب على ما قالوه ، ثم أعتمد على اللغة لعلنى أهتدى إلى الصواب .

(ا)ذكر الطبرى أن اليوم سمى يوم التغابن ، لأن أهل الجنة يغبنون فيه أهل النار ، وعزز رأيه هذا بروايتين عن مجاهد وعن قتادة[٢] .

لكنه لم يوضح سبب هذا الغبن أو طريقته ، ولا نستطيع أن نتصور أن الناس يغبن بعضهم بعضًا وهم فى هول القيامة ورهبة الحساب .

ثم إن غبن أهل الجنة لأصحاب النار لا يسمى تغابنًا ، لأنه من طرف واحد ، والتغابن إذا فسرناه بما فسره به الطبرى وهو الظلم لابد أن يكون تفاعلا من طرفين .

وذهب الزمخشرى إلى أن التغابن مستعار من تغابُن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضًا ، لأن السعداء نزلوا منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ولأن الأشقياء نزلوا منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء ، وقال إن فى هذا تهكمًا بالأشقياء ، لأن نزولهم ليس بغبن ، وقد يتغابن الناس فى غير ذلك اليوم ، ولكن التغابن فى ذلك اليوم هو التغابن فى الحقيقة لا التغابن فى أمور الدنيا وإن جلت وعظمت[٣] .

---

* بحث ألقيته فى مؤتمر المجمع .

(١) سورة التغابن ٩

(٢) تفسير الطبرى ٢٨ / ٧٩

(٣) تفسير الزمخشرى ٤ / ١٠٥

وهذا تقسيم عجيب ، لأنه من غير المعقول أن يغبن السعداء الأشقياء على وَهْمٍ لا حقيقة له ، وهو أنهم نزلوا فى منازل الأشقياء التى كان الأشقياء يستحقونها لو كانوا سعداء ، وأن الأشقياء نزلوا فى منازل السعداء التى كان السعداء يستحقونها لو كانوا أشقياء .

على أن هذا لا يتفق وقوله تعالى فى وصف أهل الجنة :

﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخوانا على سُررٍ متقابلين ﴾[١] .

فكيف يغبن أهل السعادة أهل الشقاء ؟.

وقد عقب النيسابورى على رأى الزمخشرى بقوله : فى تسمية القسم الأخير تغابنًا نظر ، إلا أن يفرض أن نزول الشقى فى ذلك المنزل يزيد عذابه ، وزيادة العذاب سبب تضييق المكان عليه .

ثم قال : ويجوز أن يفسر التغابن بأنه أخذ المظلوم حسنات الظالم ، وحمل الظالم خطايا المظلوم ، وإن صح مجىء التغابن بمعنى الغبن فذلك واضح فى حق كل مقصر صرف شيئًا من استعداده الفطرى فى غير ما أعطى لأجله[٢] .

وهذا رأى مردود ، لأن أخذ المظلوم حسنات الظالم ، وتحمل الظالم خطايا المظلوم ، يتنافى والعدل الإلهى المطلق الذى نطقت به آيات كثيرة ، مثل قوله تعالى :

﴿ كلُّ نفس بما كَسَبَتْ رهينة ﴾[٣] .

وقوله سبحانه :

﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها ، ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾[٤] .

وقوله تعالى :

﴿ إن الله لا يَظْلم مِثْقالَ ذَرَّة ﴾[٥] .

---

(١) سورة الحجر ٤٧
(٢) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٢٨ / ٧٩
(٣) سورة المدثر ٣٨
(٤) سورة الإسراء ١٥
(٥) سورة النساء ٤٠

وقوله سبحانه :

﴿ ونضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئًا ﴾[١] .

أما ابن كثير فقد ذكر رواية عن ابن عباس وقتادة ومجاهد أن يوم القيامة سمى يوم التغابن ، لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار ، وذكر رواية عن مقاتل ابن حيان أنه لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء الجنة ويذهب الآخرون إلى النار[٢] .

وقد سبق تفنيد هذا الرأى ، وإبطال دعوى الغبن ، لأن أهل الجنة استحقوها بإيمانهم وعملهم ، ولأن أصحاب النار استحقوها بكفرهم ، فلا غبن ولا عدوان .

وهناك رأى آخر قاله أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى فى كتابه الزينة ، وهو أن اليوم سمى يوم التغابن ، لأن المغبون هو الذى انكشفت سرائره فى ذلك اليوم ، فيظهر ما اكتسب فى الدنيا من عبادة غير الله بعد أن قَدَّر أنه اهتدى وأنه ينجو ، فيكون أمره كما قال عز وجل :

﴿ وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا ﴾[٣] .

فهذا هو المغبون ، مثل المغبون فى الدنيا الذى يشترى سلعة أو يبيعها فيقدر أنه ربح ، فإذا انكشف أمره ظهر أنه خسر ، فيقال له مغبون[٤] .

ولكن هذا التعليل غير مقبول ، لأنه الذى عبد غير الله تعالى يستحق العقاب فلا يسمى مغبونًا ، ولأن التغابن تفاعل ، وشتان ما بين الغبن والتغابن .

ثم قال صديقنا عبد الكريم الخطيب فى تفسيره : سمى يوم القيامة بيوم التغابن لأنه اليوم الذى يرى فيه الناس أنهم غُبنُوا من جهة أنفسهم ، وأن غبنًا أصابهم فى الدنيا فلم يأخذوا حقهم كاملا فيها ، ولم يستوفوا المطلوب منهم

---

(١) سورة الأنبياء ٤٧

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٧٥

(٣) سورة الفرقان ٢٣

(٤) كتاب الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية تحقيق الدكتور حسين الهمذانى ٢ / ٢٢٧

للحياة الأخرى ، فكل إنسان يبدو له يوم القيامة أنه قد غبن فى حياته الدنيا سواء أكان فى المحسنين أم فى المسيئين ، أما المحسن فلأنه لم يزدد إحسانًا ليزداد ثوابًا ، وأما المسيء فلأنه يرى أنه ظلم نفسه ظلمًا مبينًا إذ أطلق العنان لشهواته وأهوائه[1] .

والرد على هذا أن اليوم يوم حزن وندم وحسرة وتأنيب شديد للنفس ، وليس يوم تغابن أو غبن بذلك المعنى .

وأما مجمع اللغة العربية فإنه شرح التغابن بأنه تفاعل ، لنزول سعداء الدنيا فيه منازل الأشقياء ، ونزول أشقياء الدنيا فيه منازل السعداء ، إذ تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم فى الدنيا[2] .

وهذا الرأى لا يختلف ورأى الزمخشرى وابن كثير ، وقد سبق الرد عليه ، وأزيد على ما تقدم أن الجدير بتسمية اليوم فى هذه الحالة أن يكون يوم الإنصاف أو يوم التبادل أو ما شاكل هذا ، وليس من الحتم أن يصير سعداء الدنيا إلى شقاء وأن يصير أشقياء الدنيا إلى سعادة ، وليس من الصواب أن نعلل لتسمية اليوم بتقديرهم أو بظنهم وهم فى الحياة الدنيا .

(ب) فلنرجع إلى اللغة عسى أن نهتدى إلى المعنى المراد من الكلمة فى الآية الكريمة .

جاء فى اللغة : غَبَنَ الرجل الرجل فى البيع يَغْبِنُه – من باب ضرب – أى خدعه وظلمه ، والتغابن أن يغبن القوم بعضهم بعضًا .

وغَبِنَ الرجل رأيه . وغَبِنَ فى رأيه غَبْنًا وغَبَنًا – مثل فهم يفهم فهما وفرح يفرح فرحًا – أى نسيه وأغفله وجهله وضيعه وغلط فيه .

وغَبَنَ فلان فلانا يَغْبِنُهُ غبنا – من باب ضرب – أى مَرَّ به وهو ماثل فلم يره ولم يفطن له[3] ، وفى هذا مثل ما فى سابقه من غفلة ونسيان واشتغال .

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن ٢٨ / ٩٨
(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم مادة غبن
(٣) لسان العرب مادة غبن

(جـ) وأغلب ظنى أن المفسرين أخذوا معنى التغابن من الغبن بمعنى الظلم ، وعجيب أن ابن منظور ذهب مذهبهم ولم ينتبه إلى المعنيين الآخرين للغبن .

ثم تكلفوا له تفاعلا بين اثنين كل منهما يغبن الآخر ، أو تفاعلا بين الإنسان ونفسه ، فهو فى نظرهم مثل التنازع والتشارك والتقاتل والتنادى ، لكننى أرجح أن التغابن تفاعل بين اثنين بمعنى آخر ، لأنه من الغبن على وزن الضرب ، وقد نصت اللغة على أن معناه النسيان والإغفال والذهول ، حيث إن الذهول الشديد والإغفال الصارف والاشتغال الطاغى يعم الناس جميعًا ، فينحصر كل منهم فى نفسه ، ويذهل عن سواه ، وينصرف عن أحب أحبائه ، فهو إذن ذاهل ومذهول عنه ، ومن هنا يتحقق التفاعل وتبادل الذهول .

وليس من المستطاع أن نتصور ذهولا أشد مما صوره سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تَذْهَل كل مرضعة عما أَرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ﴾[1] .

وفى قوله سبحانه :

﴿ يوم يفر المرءُ من أَخيه ، وأُمه وأَبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأْن يغنيه ﴾[2] .

أو أن التغابن من الغَبْن أو الغَبَن – على وزن ضرب وسبب – بمعنى النسيان والجهل والغفلة والانصراف ، لأن الناس يوم القيامة يصابون بأهوال تفزعهم وتذهلهم وتنسيهم وتشغلهم ، فيصير كل منهم فى ذهول شديد ونسيان تام ، ولكن الصيغة جاءت على وزن تفاعل للمبالغة لا للدلالة على مشاركة ، ولها نظائر كثيرة فى اللغة ، منها تبارك الله أى تقدس ، وتعالى الله أى علا علوًّا كبيرًا ، وتقادم العهد أى قدم جدًّا ، وتطاول الزمن أى طال كثيرًا ، وتفاقم الأمر أى اشتد اشتدادًا ، وتناثر الحب أى انتثر انتثارًا ، وتكاثر الناس أى

---

(١) سورة الحج ١ – ٢

(٢) سورة عبس ٣٤ – ٣٧

كثروا كثرةً ، وتوافدوا أى قدموا وفودًا ، وتحامى الرجل كذا أى احتمى منه احتماءً ، وتصاغرت نفس فلان أى صارت صغيرة ذليلة ، وتعاطى الشىء أى تناوله مرات ، وتماثل العليل للشفاء أى قاربه .

وليس فى صيغة من هذه الصيغ تفاعل أو مفاعلة بين اثنين أو طرفين .

وسواء ذهبنا إلى أن التغابن تفاعل من الغبن بمعنى الذهول الطاغى والاشتغال الفادح ، أو إلى أنه مبالغة من الغبن بهذا المعنى فإن هذا أو ذاك أولى بالقبول من القول بأن التغابن من الغبن بمعنى الظلم أو الخداع ، وأسلم مما يجره هذا القول من تكلف وافتراض ، وأقرب إلى المعنى اللغوى لكلمة غبن ، وأشد مناسبة لأهوال يوم القيامة التى وصفها القرآن الكريم .

كلمة الأريسيين*
فى كتاب النبى إلى هرقل
ما الصواب فى نطقها وفى معناها ؟

١

بعث النبى عليه الصلاة والسلام رسائل الى الملوك والأمراء[١] ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، منها رسالة إلى هرقل إمبراطور الروم (الإمبراطورية البيزنطية) جاءت فيها كلمة الأريسيين .

وقد اتفق مدونو السيرة النبوية وكتاب التاريخ ومؤلفو المعاجم اللغوية على النطق بهذه الكلمة ، ولكنهم اختلفوا فى معناها ، فرأيت أن أجعلها موضوع هذا البحث .

واقتضى هذا أن يتقدم نص كتاب النبى إلى هرقل ، وكيف نطق السابقون بكلمة أريسين ؟ وبم شرحوها ؟ ثم أعقب عليهم بكلمة ممهدة للكشف عن الصواب فى نطق الكلمة وفى معناها ، ثم يجىء الرأى الذى لعلنى اهتديت إليه .

رسالة النبى إلى هرقل

أما رسالة النبى عليه الصلاة والسلام إلى هرقل فهى[٢] :

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى .

---

* بحث ألقيته فى مؤتمر المجمع .

(١) كان هذا سنة ٩ هـ (٦٣٠ م) وقيل سنة ٨ هـ وقيل سنة ٦ هـ تاريخ الطبرى ٣ / ٨٩ وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ / ٨٠ والاستيعاب فى معرفة الأصحاب ١ / ٤٦١ والإصابة فى تمييز الصحابة ٢ / ٣٨٥ .

(٢) صحيح البخارى ٤ / ٤٤ ، ٤٧ وصحيح مسلم ٣ / ١٣٩٦ ، وإنسان العيون المعروف بالسيرة الحلبية ٣ / ٢٨٣ ، وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٦ ومجموعة الوثائق النبوية فى المعهد النبوى ٢٩ للدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى .

أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين .

فإن توليت فعليك إثم (الأريسيين) .

﴿ يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئًا ، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[1] .

لكن كلمة « الأكارين » أو كلمة « الفلاحين » وردت فى بعض الروايات بدلا من كلمة « الأريسيين »[2] .

ولم أجد فى سيرة ابن هشام نصًا لأية رسالة من رسائل النبى إلى الملوك والأمراء ، واكتفى ابن هشام بالإشارة إلى الرسائل .[3]

وأرجح أن كلمة الإريسيين هى الأصيلة فى كتاب النبى عليه الصلاة والسلام ، وأن كلمة الأكارين أو الفلاحين رواية بالمعنى ، كما حدث فى كثير من النصوص .

١ - فكيف نطق القدماء الأريسيين ؟ لقد نطقوها هكذا (الأريسيين بفتح الهمزة وكسر الراء الممدودة وكسر السين وبعدها ياء مشددة ممدودة)[4] .

وجاء فى شرح صحيح مسلم أربع روايات فى ضبط الكلمة .

أشهرها فى روايات الحديث وفى كتب أهل اللغة هو الضبط السابق .وثانيها مثله لكن بعد السين ياء واحدة .

وثالثها بكسر الهمزة وتشديد الراء وبعدها ياء واحدة وسين ممدودة .

ورابعها هكذا (اليرسيين) بياء مفتوحة وراء ساكنة وسين مكسورة بعدها ياء مشددة ممدودة .

٢ - وبماذا فسروها ؟

---

(١) سورة آل عمران ٦٤

(٢) تاريخ الطبرى ٣ / ٨٧ ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢ / ٨٠ ، وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٧ .

(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٥٤

(٤) المراجع السابقة .

جاء فى السيرة الحلبية وفى شرح صحيح مسلم أن المراد الفلاحون ، وأشار أصحاب هذا التفسير إلى أن كلمة الأكارين أو كلمة الفلاحين وردت فى بعض روايات الرسالة بدلا من كلمة أريسيين ، وقالوا إن الأكار هو الفلاح ، لأن أهل السواد ومن والاهم أهل فلاحة ، والمراد عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك ، وينقادون لأمرك ، وخص هؤلاء بالذكر ، لأنهم أسرع انقيادًا من غيرهم ، إذ الغالب عليهم الجهل والجفاء وقلة الدين .[١]

وقال القلقشندى – بعد أن أورد صورة ثانية للرسالة من كتاب الأموال لأبى عبيدة جاء فيها قول النبى لهرقل :
« فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه » – إن أبا عبيدة قال : أراد بالفلاحين أهل مملكته ، لأن العجم عند العرب كلهم فلاحون وأهل زرع وحرث .[٢] .
وفى شرح صحيح مسلم أن المراد اليهود والنصارى ، أو أتباع رجل اسمه عبد الله بن أريس .

وفى المعاجم الثلاثة : لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس :[٣] الأريسى ، والأريس على وزن جليس ، والأريس على وزن سكيت : الخادم ، والأكار ، وفلاح السواد الذى لا كتاب له .
وقيل إن الأريسيين قوم من المجوس لا يعبدون النار ، ويزعمون أنهم على دين إبراهيم ، ويعبدون الله تعالى ، ويحرمون الزنا ، وصناعتهم الحراثة .
وقيل إنهم الأمراء وكبراء القوم الذين يمتثل الناس أمرهم ، ويطيعونهم . فهم فى الكتاب النبوى القادرون على هداية قومهم ولم يهدوهم ، وأنت أريسيهم الذى يطيعونك ، ويجيبون دعوتك ، ويمتثلون

---

(١) إنسان العيون ٣ / ٢٨٣
(٢) صبح الأعشى ٦ / ٣٧٧
(٣) مادة أرس

أمرك ، وإذا دعوتهم إلى أمر أطاعوك ، فلو دعوتهم إلى الإسلام لأجابوك ، فعليك إثمهم .

وقيل إن فى اتباع هرقل ملك الروم فرقة تعرف بالأروسية ، فجاءت كلمة الأريسيين على النسب إليهم .

أو هم عبدة النار من الفرس ، لأنهم كانوا يفلحون الأرض بالشام ، إذ أنهم زراع ، وأهل الشام صناع .

وقيل إنهم أتباع عبد الله بن أرس ، وهو رجل كان فى الزمن الأول ، وقد قتلوا نبيًّا بعثه الله إليهم .

أما أريسى فجمعه أريسيون ، وأما أريس فجمعه أريسون ، وأرارسة ، وأراريس ، وأرارس ،

والفعل أرس يأرس من باب ضرب ، وأرس يؤرس تأريسًا .

وفى كتاب من معاوية إلى ملك الروم ، وقد بلغه أنه يقصد بلاد الشام أيام صفين : لأردنك أريسا من الأرارسة ترعى الدوابل .[1] .

وفى حديث آخر : فعليك إثم الأريسيين .

٢

لكن هذا التفسير يقتضى التعقيب :

(ا) فهو لا يتفق على معنى كلمة (أريسيين) ، لأنهم الفلاحون ، أو الخدم ، أو الفلاحون الذين لا كتاب لهم ، أو قوم من المجوس يعبدون الله ولا يعبدون النار ، أو الأمراء والكبراء ، أو القادرون عل هداية الناس ، أو هم فرقة من أتباع هرقل لم يبين الشراح حقيقتها ، أو هم أتباع رجل اسمه عبد الله بن أرس أو ابن أريس ، أو هم اليهود والنصارى .

(ب) وإنى استبعد من المناقشة الزعم بأنهم اتباع رجل اسمه عبد الله بن أرس أو ابن أريس لأن هذا كلام لا أصل له ، ولا سند ، ولو فرضنا أنه شبه

---

(١) الدوابل: جمع دوبل وهو الخنزير

صحيح لجاء النسب إلى أرس على هذه الصورة أرسيون .

كما استبعد أنهم جماعة من المجوس يعبدون الله تعالى ، ولا يعبدون النار ، لأن المجوس كلهم منذ كانوا عبدة للنار ، وليست فيهم طائفة تعبد الله ، وإلا ما كانوا مجوسًا .

وليس من الصواب فى شيء أن تفسر الكلمة بأنها تعنى الأمراء والكبراء والقادرين على هداية الناس ، فإنه لا مسوغ لهذا التفسير .

ومن الميسور دحضه بعدة اعتراضات :

لماذا اختص النبى الأمراء والكبراء بالذكر ؟

وهل كان الأمراء والكبراء فى أى بلد وفى أى عصر سباقين إلى اتباع المذاهب الجديدة ؟

ألم يكونوا حرَّاصًا أشد الحرص على مناصبهم ومنافعهم ونفوذهم ؟

وهل كانوا يطمئنون إلى أن الدين الجديد سيكفل لهم ما يتمتعون به من نفوذ ومكانة ؟

لا ، فإنهم كانوا يتخوفون من الدين الجديد أن يسلبهم ما ليس لهم بحق ، فلابد أن يعارضوه وأن يصدوا الناس عنه .

وقد حدث فيما بعد ما يؤكد هذا ، إذ تصدى كثير من كبراء الشام للدعوة الإسلامية ، وحاربوها حينما بلغتهم ، حتى نصر الله دينه فى خلافة أبى بكر وعمر .

ولم يكن النبى عليه الصلاة والسلام ليحمل هرقل أوزارهم ، وهم ليسوا أسرع تقبلا للإسلام من غيرهم ، ولم يكن النبى ليختصهم ويهمل ذكر الشعب وهم الأكثرية ، وهم الأقربون قبولا للإسلام .

ومما ذكروه فى معنى الكلمة أنهم الفلاحون .

وهذا تفسير بعيد، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يذكر فى كتبه الأخرى إلى الملوك والولاة صنفًا من الناس ذوى حرفة ، فمثلا فى كتابه إلى

المقوقس عظيم مصر قال : فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ،[١] ولم يقل فعليك إثم الأكارين أو الفلاحين .

وأنذر كسرى بأنه إن تولى فعليه إثم المجوس[٢] ، وأوعد النجاشى أنه إن صد عن الإسلام فعليه إثم النصارى من قومه[٣] .

فلماذا اختص الفلاحين فى كتابه إلى هرقل ؟

أما القول بأنهم سكان السواد فإنه واضح البطلان ، لأن السواد جزء من العراق الخاضع لفارس فى ذلك الوقت ، لا جزء من الشام .

وكأنما حاول القائل به أن يسوغه فقال إن سكان السواد من أبناء الفرس كانوا يفلحون الأرض بالشام إذ أن أهل الشام صناع لا يجيدون الفلاحة ، وأهل فارس زراع لا يحسنون الصناعة .

وهذا تأويل لا سند له من تاريخ الأمتين .

ثم إنه ليس من المعقول أن يلقى النبى على كاهل هرقل ملك الروم وزر قلة ضئيلة من مجوس الفرس مقيمين فى ملكه ، ويخليه من أوزار أكثر قومه ، وهم نصارى أقرب من المجوس إلى تعاليم الإسلام وإلى تقبله .

وليس من الصواب الزعم بأن العجم كلهم فى نظر العرب أهل زرع وحرث . وإنه ليدحض هذا الرأى أن كتب النبى الأخرى إلى العجم الآخرين لم ترد فيها كلمة الفلاحين .

ومن مجافاة الصواب القول بأن الأريسيين هم اليهود والنصارى ، لأن هذه الكلمة لم تستخدم للدلالة عليهم فى أى عصر وفى أى وطن .

وقد جرى القرآن الكريم على إطلاق (أهل الكتاب) على اليهود تارة وعلى النصارى تارة ، على حين أنه إذا أراد اليهود وحدهم كان يسميهم أحياناً

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ / ٨٥ وإنسان العيون ٣ / ٢٩٥ ومجموعة الوثائق النبوية ٥٠ وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ٣ / ٩٠ وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٨ وإنسان العيون ٣ / ٢٩١ ومجموعة الوثائق النبوية ٥٤ وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ / ٨١ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٨٩ ومجموعة الوثائق ٢٦ .

اليهود وأحيانًا بنى إسرائيل ، وإذا أراد النصارى وحدهم كان يطلق عليهم كلمة النصارى .

وإذا ما رجعنا إلى كتب النبى التى بعثها إلى الملوك نجده ذكر كلمة النصارى فى كتابيه إلى النجاشى والمقوقس ، فمن غير المعقول أن يعبر عن اليهود والنصارى معا بكلمة الأريسيين فى كتابه إلى هرقل .

أما الزعم بأن اليهود والنصارى اتبعوا ذلك الشخص المسمى بعبد الله ابن أوس أو أريس[1] فهو زعم يحمل بطلانه ، لأنهم لم يجتمعوا يومًا ما على عقيدة ، ولم يلتفوا يومًا ما حول داعية ، إذ أن بينهم من الخلاف والاختلاف ما لا تنطفئ ناره ، وذلك الاسم المزعوم لا يعدو أن يكون أسطورة .

أما قول الزبيدى : وقيل إن فى اتباع هرقل ملك الروم فرقة تعرف بالأروسية ، فجاءت كلمة الأريسيين على النسب إليهم ، فهو أقرب إلى الصواب مما عداه .

ولكن النسب إلى الأروسية كان ينبغى أن يكون أروسيين لا أريسيين كما وردت الكلمة فى الروايات المعتمدة .

كلمة كاشفة

فى تاريخ المسيحية داعية كبير عظيم الشأن ، اسمه أريوس[2] . دعا فى مصر إلى التوحيد الخالص ، وأنكر ما جاء فى الأناجيل يوهم ألوهية السيد المسيح عليه السلام ، وقال إن الأب وحده هو الله ، وإن المسيح مخلوق مصنوع ، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن ، وبهذا عارض ما كانت تذيعه كنيسة الإسكندرية من ألوهية المسيح[3] .

وذاعت تعاليم أريوس ، وصار له كثير من الأشياع ، فدانت بها كنيسة

---

(١) كما جاء فى شرح مسلم

(٢) ولد حوالى ٢٥٦ وتوفى سنة ٣٢٥ م بالقسطنطينية

(٣) كتب أريوس تعاليمه فى رسالته ثاليا Thalia ولم تصل إلينا منها إلا مقتبسات فيما كتبه أثناسيوس

أسيوط واعتنق مذهبه كثير من الأتباع الأقوياء فى الإسكندرية نفسها ، وفى مقدونية وفلسطين والقسطنطينية .

وأراد بطريك الإسكندرية أن يقضى على تعاليم أريوس ، لكنه خشى إن اعتمد على المحاجة والمناقشة ، أن ينتصر عليه أريوس ، فعمد إلى لعنه وطرده من حظيرة الكنيسة ، واعتمد فى هذه العقوبة على أنه رأى فى المنام أن السيد المسيح يتبرأ من أريوس ويلعنه .

لكن آراء أريوس لم تزل قوية منتشرة .

فلما تولى أمر كنيسة الإسكندرية البطريرك إسكندر لجأ إلى الأناة والدهاء فكتب إلى أريوس وكبار أنصاره يدعوهم إلى الخضوع لتعاليم كنيسة الإسكندرية ، فلم يستجيبوا له ، فعقد مجمعًا بكنيسة الإسكندرية ، حكم على أريوس بالحرمان فلم يرهب أريوس ، ولم يخضع ، وغادر الإسكندرية إلى فلسطين ، وشجعه على إصراره أن كثيرًا من الأساقفة يدينون بما يدين به ، مثل أسقف فلسطين وأسقف مقدونية وأسقف نيقومدية ، وكنيسة أسيوط .

فلما تفاقم الخلاف تدخل قسطنطين الأول إمبراطور الروم ، فأرسل كتابًا إلى أريوس وإلى أسقف الإسكندرية يدعوهما إلى الوفاق ، ثم جمع بينهما ، فلم يتفقا ، فدعا إلى عقد مجمع كنسى عام فى مدينة نيقية (أزتيك الحالية فى آسيا الصغرى) سنة ٣٢٥ م .

اجتمع فى هذا المجمع ألفان وثمانية وأربعون أسقفًا من مذاهب متعددة فى شأن السيد المسيح وأمه السيدة مريم .

وكان رأى بولس الرسول أن المسيح إله ، وتبعه فى هذا الرأى ثلاث مئة وثمانية عشر أسقفًا ، وخالفه الباقون ، وجنح الإمبراطور قسطنطين الأول الى هذا الرأى الذى دانت به الأقلية ، وعقد مجلسًا خاصًا لهؤلاء ، وجلس فى وسطهم ، وانتهى إلى فرض اعتقاد ألوهية المسيح بالقوة والسيف ، وإحراق الكتب المخالفة لها ، وتحريم قراءتها ، والحكم على تعاليم أريوس بأنها بدعة وإلحاد ، وتقرر نفيه .

لم يغرب رأى أريوس ، على الرغم من قوة الإمبراطور وقرار مجمع نيقية ، بل ظل قويًّا بأنصاره والدعاة إليه ، ومن مظاهر قوته أنه فى المجمع الإقليمى بمدينة صور احتدم الجدال بين آوسابيوس أسقف مدينة نيقومدية والفريق المشايع له – وهم يدينون بمذهب أريوس – وبين رئيس كنيسة الإسكندرية ، حتى إنهم ضربوه ، وكادوا يقتلونه .

كذلك من مظاهر قوة تعاليم أريوس ، أنها فى عهد قسطنطين الثانى – ابن قسطنطين الأول – سادت فى القسطنطينية وبيت المقدس وأنطاكية وبابل والإسكندرية وأسيوط حتى إن ابن البطريق قال إن أكثر سكان مصر والإسكندرية كانوا على مذهب أريوس ، وقد غلبوا على الكنائس ، ووثبوا على أثناسيوس بطريرك الإسكندرية ليقتلوه ، فهرب واختفى .

كانت القوة الحاكمة تصادر مذهب أريوس ، ولكنه كان أقوى منها بالدعاة إليه ، مثل مقدونيس ، إذ جاهر بأن الروح القدس ليس إلها ، بل هو مخلوق مصنوع ، فاجتمع فى القسطنطينية مئة أسقف وخمسون ، واختاروا أسقف القسطنطينية رئيسًا عليهم ، وقرروا لعن مقدونيوس ومن يقول بمقالته .

وظهر بعد ذلك من أتباع تعاليم أريوس داعية آخر اسمه نسطور ، دان بأن المسيح إنسانمملوء بالبركة والنعمة ، وأنه رسول من الله وملهم وموحى إليه ، وكان لنسطور أتباع هم النساطرة .

فاجتمع مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ م ومجمع أفسس الثانى سنة ٤٤٩ م ، وصدر من كل منهما قرار ببطلان رأى نسطور ، ولعنه ، ونفيه إلى مصر .

ثم كان مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م لتأييد قرار مجمع أفسس الثانى .

لكن المذهب بقى ذا آثار فى العراق والموصل والفرات والجزيرة .

ثم ظهر يعقوب البرادعى – وهو من أشياع مذهب أريوس – فجعل يذيع فى حماسة وقوة حجة وإقناع مذهب التوحيد فى البلاد الرومية وفى مصر ، ورسم تسعة وثمانين أسقفًا وألوفًا من الكهنة والقساوسة ، وكان ذلك فى القرن السادس الميلادى .

ويعنينا فى هذا المقام أن تعاليم أريوس كانت ذائعة وقوية فى الشرق منذ عصره إلى القرن السابع الميلادى .

وقد كانت رسالة النبى إلى هرقل فى سنة ٦٣٠ م أى فى الثلث الأول من هذا القرن .

رأى جديد

بعد هذا التطواف آمل أن أكون قد عثرت على المفتاح الذى أستفتح به الخزانة المغلقة التى كنزت النطق الصحيح والمعنى الصواب لكلمة أريسيين هذا الزمان الطويل .

والذى أرجحه أن الكلمة منسوبة إلى أريوس ، على هذه الصورة (أريسى) وجاء جمعها على هذه الصورة (أريسسون) .

فهى تعنى أتباع أريوس ، لأنهم يدينون بالتوحيد الخالص الذى جاء به الإسلام ، وأكده القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

وقد اختصهم النبى بالذكر ، لأنهم سيرحبون بالإسلام ، ويعتنقونه ويذيعونه حينما تبلغهم دعوته القائمة على التوحيد الخالص ، وعلى التصديق بالرسالات السابقة والكتب المنزلة الماضية ، وعلى الاعتقاد بأن عيسى عليه السلام إنسان ولدته أمه السيدة مريم العذراء من غير أب .

فعلى هرقل أن يفسح الطريق لإبلاغهم هذه الدعوة ، ليكون له أجران ، أجر على نصرانيته ، وأجر على إسلامه إذا أسلم .

فإن أعرض عن الإسلام ، وصد عن الدعوة إليه ، كان عليه وزر هذه الفرقة المسيحية الموحدة التى ستتلقى الإسلام إذا بلغها بهشاشة وتأييد .

وأنه ليعزز هذا أن كلمة أريوس arius تنطق هكذا (أريس) بغير مد الياء ، فالنسب إليها أريسى ، وجمعه أريسيون .

فهل اتضح النطق الصحيح للكلمة التى وردت فى كتاب النبى ؟

نعم ، إن الصواب النطق بها فى التعبير هكذا : فعليك إثم الأريسيين (بفتح

الهمزة وسكون الراء وضم الياء وكسر السين وبعدها ياء مشددة مكسورة ممدودة) .

وليس من الصواب النطق بها هكذا : أريسيين (بفتح الهمزة وكسر الراء الممدودة وكسر السين وبعدها ياء مشددة مكسورة ممدودة) كما نجد فى المصادر القديمة كلها .

ويعزز هذا أن رسم الكلمة واحد فى النطقين ، فالتبس النطق الصحيح على المدونين ، فاختلفوا فى معناها كما تقدم .

وبعـــد

فإننى أرجو أن يكون قد تكشف النطق الصائب والتفسير الصحيح للكلمة . أغلب ظنى أن كلا منهما قد اتضح واستبان ، والله الموفق والمستعان .

حذف خبر المبتدأ*
فى القرآن الكريم

١ - خير ما أقدم به بحثى هذا أن أذكر نفسى بما استنه كثير من أساتذتنا القدامى ، إذ كانوا يختلفون ويستدرك بعضهم على بعض ، ولكن كثيرًا منهم كانوا يحرصون على عفة ألسنتهم وأقلامهم ، فلا يزيدون على مثل قولهم : هذه اللفظة أثبتها فلان ، وأنكرها فلان ، أو لم يعرفها فلان ، أو خلافًا لفلان ، وما أشبه هذا مما لا يتعدى إلى الوصف بجهل أو غباء أو حمق أو ضلال . ومن الأمثلة على هذا السنن الطيب ، أن أبا حاتم روى أن الأصمعى قرأ على أبى عمرو بن العلاء بيتًا للحطيئة هو :

وغـــررتنى وزعمت أنســ ـــك لابنٌ فى الصيف تامر

هــكذا :

وغـــررتنى وزعمت أنســ ـــك لاتَنِى بالضيف تأمر

أى لا تتوانى عن ضيفك بتعجيل القرى إليه ، فقال له أبو عمرو : أنت والله فى تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة .

وقال القاضى جابر بن هبة الله : قرأت على الحريرى مقاماته ، ومنها قوله :

يا أهل ذا المغنى وُقيتم شرا ولا لقيتم ما بقيتم ضرا
قد دفع الليل الذى اكفهرا إلى ذراكم شَعِثًا مغبـرا

---

* مؤتمر المجمع

فقرأت البيت الثانى : سَغِبا معترا .

ففكر الحريرى ثم قال : والله لقد أجدت فى التصحيف ، وإنه لأجود ، فرب شَعِث مغْبَر غير محتاج ، ولكن السَّغِب المُعْتَرَّ محتاج ، ولولا أنى كتبت خطى إلى هذا اليوم على سبع مئة نسخة قرئت علىَّ لغيرته كما قلت .

ومن هذا أيضًا أن عبد الله بن عمر سئل : كم اعتمر رسول الله ﷺ ؟

فقال : أربعا ، إحداهن فى رجب .

وكانت السيدة عائشة تسمع ، فقالت : يرحم الله أبا عبد الرحمن ، ما اعتمر رسول الله ﷺ إلا وهو معه ، وما اعتمر فى رجب قط[1] .

فلنذكر علماءنا السابقين بالثناء والتقدير ، سواء وافقناهم أو خالفناهم ، فقد نهضوا بواجبهم العلمى خير نهوض ، ومهدوا لنا السبيل ، وذللوا كثيرًا من الصعاب .

٢ - أما الحذف الذى سأعرض ضربين اثنين منه ، فهو حذف كلمة أو جملة أو جمل ، اعتمادًا على أن فى الكلام المذكور ما يدل على المحذوف لفظًا أو سياقًا ، فلا خفاء فى معرفة المحذوف ، ولا إخلال بالفهم ، ولهذا اشترطوا أن يكون فيما أبقى دليل على ما ألقى[2] .

والغرض من هذا الحذف إثارة انتباه المخاطب وتحريك شوقه إلى إدراك المعنى ، فيعظم فى نفسه شأنه حينما يدركه ، كما أنه يشعر بالرضا حينما يستنبط بنفسه ما حذف من الكلام . هذا إلى ما فى الحذف من تحصيل المعنى الكثير باللفظ القليل ، مع الوفاء بالمعنى .

حذف خبر المبتدأ

الأصل فى خبر المبتدأ ألا يحذف ، لأن المبتدأ والخبر معًا يؤديان المعنى

---

(١) الإجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشى ١٢٩ وصحيح مسلم بشرح النووى ٨ / ٢٣٧

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١ / ١١١ .

المراد ، وهما متصلان مرتبطان ، فإذا كان الخبر جملة اسمية أو فعلية فلابد من اشتمالها على رابط يعود إلى المبتدأ ويصله بالخبر .

مثال الجملة الاسمية قوله تعالى :

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[١] .

ومثال الجملة الفعلية قوله سبحانه :

﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾[٢] .

وإنه ليسترعى الانتباه أن أسلوب القرآن امتاز فيما امتاز به بحذف خبر المبتدأ فى كثير من الآيات .

ولقد اختلف المفسرون فى هذا الحذف على التفصيل الذى سأعرضه وأعقب عليه ، متدرجًا مع المفسرين تدرجًا زمانيًّا مرتبًا على سنوات الوفاة .

الآية الأولى

قال تعالى :

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورًا ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا ﴾[٣] .

فأين خبر الذين ؟

١ - ذهب الطبرى (٣١٠ هـ) إلى أن الله لا يحب المختال الفخور الذى يبخل ، ويأمر الناس بالبخل ، وقال إن (الذين) يحتمل أن يكون فى

---

(١) سورة البقرة ٣٩.

(٢) سورة المؤمنون ٧٥.

(٣) سورة النساء ٣٦ - ٣٧.

موضع رفع ردًّا على ما فى قوله (فخورًا) من ذم ، ويحتمل أن يكون نصبًا على النعت لمن[1] .

٢ - وذهب الزمخشرى (٥٣٨ هـ) إلى أن (الذين) بدل من قوله (من كان مختالا فخورًا) أو نصب على الذم ، أو رفع على الذم ، ويجوز أن تكون (الذين) مبتدأ خبره محذوف ، كأنه قيل الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل أحقاء بكل ملامة[2] .

٣ - وذهب القرطبى (٦٧١ هـ) إلى أن (الذين) فى موضع نصب على البدل من (من كان مختالا فخورًا) ولا يكون صفة ، لأن (من) و (ما) لا يوصفان ولا يوصف بهما ، ويجوز أن يكون فى موضع رفع ، فيعطف عليه قوله تعالى :

﴿ **والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس** ﴾ ويجوز أن يكون ابتداء والخبر محذوف ، أى للذين يبخلون لهم كذا ، أو يكون الخبر ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ ويجوز أن يكون منصوبًا بإضمار أعنى[3] .

٤ - أما النيسابورى (٧٢٨ هـ) فلم يذكر شيئًا[4] .

٥ - وكذلك ابن كثير (٧٧٤ هـ)[5] .

تعقيب

١ - يبدو التكلف فى إعراب (الذين) نعتًا لمن أو بدلا من (من) لأن هذا الإعراب قائم على تأويل « من كان مختالا فخورًا » بالجمع لينسجم التعبير مع (الذين) .

كما يبدو التكلف فى إعراب (من) مفعولا لفعل ذم محذوف ، لأن الآية

---

(١) تفسير الطبرى ٥ / ٥٤ .

(٢) الكشاف ١ / ٢٦٨ .

(٣) تفسير القرطبى ٥ / ١٩٢ .

(٤) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٥ / ٤٨ .

(٥) تفسير ابن كثير ١ / ٤٩٦ .

السابقة تنص على كراهية الله تعالى للمختال الفخور ، وهذه الكراهية أشد من الذم ، فكيف يستحق المختال الفخور كراهية الله له ، ولا يستحق هذه الكراهية البخيل بنعم الله الذى يأمر غيره بالبخل ، بل يستحق الذم فحسب ؟

هذا إلى أن الذوق لا يستريح إلى هذا التقدير ، ولا يستريح إلى إعراب (الذين) مفعولا لفعل محذوف تقديره أعنى .

أما إعرابها مبتدأ عطف عليه ﴿ والذين ينفقون ﴾ ليكون الخبر مؤخرًا على هذه الصورة فإنه إبعاد للخبر عن المبتدأ .

٢ – فما التقدير الذى يستحق الإيثار ؟

لقد ذكر هذا التقدير بعض المفسرين فيما سبق ، وهو أن (الذين) مبتدأ خبره محذوف .

فإذا أردنا تقديره تقديرًا صحيحًا كان علينا أن نتدبر ختام الآية الكريمة وهو قوله تعالى :

﴿ وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا ﴾

وتقدير هذا الخبر يجئ على هذه الصورة : الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله كفار بنعم الله أو مستحقون لعذاب الله ، وقد أعد الله للكفار عذابًا مهينًا .

ومن هنا يتبين أن التذييل ﴿ وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا ﴾ دل على خبر المبتدأ وأغنى عنه .

الآية الثانية

قال تعالى :

﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قرينًا فساء قرينًا ﴾[1] .

---

(١) سورة النساء ٣٨.

١ – ذكر الطبرى أن (الذين) فى موضع جر عطفا على (الكافرين) فى الآية السابقة ﴿ وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا ﴾[١] .

٢ – ولم يتعرض الزمخشرى لموقع (الذين)[٢] .

٣ – وقال القرطبى (٦٧١ هـ) إن (الذين) معطوف على (الذين يبخلون ﴾، وقيل هو عطف على (الكافرين) فيكون فى موضع خفض[٣] .

٤ – وقال النيسابورى (٧٢٨ هـ) إن (الذين) معطوف على ﴿ الذين يبخلون ﴾[٤] .

٥ – ولم يتعرض ابن كثير (٧٧٤ هـ) لموقع الذين[٥] .

تعقيب

١ – أستبعد إعراب (الذين) فى موضع جر عطفًا على (الكافرين) فى الآية السابقة ، لأن الذين ينفقون أموالهم مراءاة للناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ألصق بالكفر من الذين يبخلون بنعم الله ويكتمون خيره وفضله ، فكيف يوصف هؤلاء البخلاء بالكفر ويتوعدهم الله بعقاب الكفار ، ثم يجئ تابعًا لهم ومعطوفًا عليهم الذين ينفقون مراءاة للناس الجاحدون بوجود الله تعالى المنكرون ليوم القيامة ؟.

٢ – هذه ملاحظة ، والملاحظة الثانية أن (الذين ينفقون) لو كانت معطوفة على (-الكافرين) لكان الأولى أن يكون الأسلوب : وللذين ينفقون أموالهم رئاء الناس .

٣ – وأما إعراب (الذين ينفقون) معطوفًا على (الذين يبخلون) فإنه لم يحقق شيئًا ، لأن الخبر ما زال فى حاجة إلى تقدير .

---

(١) تفسير الطبرى ٥ / ٥٦ .

(٢) الكشاف ١ / ٢٦٨ .

(٣) تفسير القرطبى ٥ / ١٩٣ .

(٤) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٥ / ٤٨ .

(٥) تفسير ابن كثير ١ / ٤٩٦ .

٤ - فما الوجه الصحيح ؟

أرى أن خبر (الذين) محذوف دل عليه قوله تعالى :

﴿ ومن يكن الشيطان له قرينًا فساء قرينًا ﴾ .

أى الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر عصاة لله ، أو خاضعون للشيطان ، أو مستحقون عذاب الله ، ومن يكن الشيطان له قرينا جره إلى هذا المصير .

الآية الثالثة

قال الله تعالى :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسًا إلا وسعها ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾[1].

أين خبر الذين ؟

١ - لم يذكر الطبرى شيئًا[2].

٢ - ورأى الزمخشرى أن « لا نكلف نفسًا إلا وسعها » جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب فى اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو فى الوسع ، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح[3].

ومعنى هذا أن جملة « أولئك أصحاب الجنة » هى الخبر .

٣ - ورأى القرطبى أن « لا نكلف نفسًا إلا وسعها » كلام معترض ، وأن خبر « الذين » هو « أولئك أصحاب الجنة »[4].

٤ - ورأى النيسابورى هذا الرأى ، وزاد عليه أنه يصح أن تكون جملة

---

(١) سورة الأعراف ٤٢.

(٢) تفسير الطبرى ٨ / ١٣٣.

(٣) الكشاف ٢ / ٦٢.

(٤) تفسير القرطبى ٧ / ٢٠٧ .

«لا نكلف نفسًا إلا وسعها» هي الخبر ، والعائد محذوف تقديره نفسًا منهم[١].

٥ – ولم يذكر ابن كثير شيئًا عن موقع «الذين»[٢].

تعقيب

١ – خير ما قالوه في إعراب الآية الكريمة أن «الذين آمنوا» مبتدأ خبره «أولئك أصحاب الجنة».

ولكن هذا لا يمنع من تقدير خبر محذوف مفهوم من قوله تعالى : ﴿ **أولئك أصحاب الجنة** ﴾ .. تقديره مثلا : ثوابهم عظيم ، فيكون الأسلوب على هذه الصورة : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثوابهم عظيم ، لا يكلف الله نفسًا من العمل الصالح إلا ما تطيقه ، أولئك أصحاب الجنة .

ومعنى هذا أن نهاية الآية الكريمة أشارت إلى خبر المبتدأ ودلت عليه .

الآية الرابعة

قال تعالى :

﴿ **والذين عملوا السيئات ، ثم تابوا من بعدها وآمنوا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾[٣] .

١ – لم يذكر الطبرى ولا الزمخشرى ولا القرطبى ولا النيسابورى ولا ابن كثير شيئًا عن موقع «الذين»[٤] .

ويبدو لى من ختام الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ **إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ .

---

(١) على هامش الطبرى ٨ / ٩٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢١٤ .

(٣) سورة الأعراف ١٥٣.

(٤) تفسير الطبرى ٩ / ٤٩ والكشاف ٢ / ٩٥ وتفسير القرطبى ٧ / ٢٩٢ وتفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٩ / ٤٨ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢٤٨

أن الخبر محذوف ، تقديره : مغفور لهم ، أو مقبولة توبتهم ، أو ناجون من عقاب الله .

الآية الخامسة

قال سبحانه وتعالى :

﴿ والذين يمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾[1].

١ – لم يعرض الطبرى لإعراب « الذين »[2].

٢ – وذكر الزمخشرى وجهين : أحدهما أن « الذين » مرفوع بالإبتداء ، وخبره « إنا لا نضيع أجر المصلحين » ، لأن المصلحين فى معنى الذين يمسكون بالكتاب ، كقوله تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ [3].

والوجه الآخر أن « الذين » مجرور بالعطف على « الذين يتقون » فى قوله تعالى :

﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ .

ويكون قوله تعالى :

﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ اعتراضًا[4] .

٣ – ولم يتعرض للإعراب القرطبى ولا النيسابورى ولا ابن كثير[5] .

---

(١) سورة الأعراف ١٧٠.

(٢) تفسير الطبرى ٩ / ٧٤.

(٣) سورة الكهف ٣٠.

(٤) الكشاف ٢ / ١٠٢.

(٥) تفسير القرطبى ٧ / ٣١٣ والنيسابورى ٩ / ٦٩ وابن كثير ٢ / ٢٦٠

تعقيب

١ - أستبعد أن يكون « الذين يمسكون بالكتاب » معطوفا على « الذين يتقون » فى الآية السابقة ، لأن الذين يتقون أعم من الذين يمسكون بالكتاب ، ولأن بين المعطوف والمعطوف عليه قوله تعالى:

﴿ أفلا تعقلون ﴾ ، ثم لأن العطف كان يتعين لو جاءت الآية على هذا النسق : وللذين يمسكون بالكتاب ، ويظهر لى أن قول الزمخشرى (إنا لا نضيع) اعتراض صوابه أن « أفلا تعقلون » هو الاعتراض ، لأن إنا لا نضيع تذييل لا اعتراض .

٢ - كذلك أستبعد أن يكون الخبر « إنا لا نضيع أجر المصلحين » لأنه لا رابط فى هذه الجملة يعود على المبتدأ ، وإعرابها خبرًا يقتضى تقدير رابط هو (منهم) مثلا ، ولا داعى لإعراب قائم على تقدير ما دام التعبير محتملا لوجه آخر .

٣ - فما هذا الوجه ؟

أرى أن قوله تعالى:

﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ تذييل يوحى بالخبر المحذوف ، وأصل التعبير هو : والذين يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة ثوابهم عظيم عند الله ، إن الله لا يضيع أجر من يحسنون عملا .

الآية السادسة

قال تعالى :

﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾[1].

---

(١) سورة الحج ٤٠ - ٤١ .

ما موقع الذين من الإعراب ؟

١ - رأى الطبرى أن « الذين » رد على الذين فى قوله تعالى :
﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ قبل هاتين الآيتين [١] .

٢ - ورأى الزمخشرى أن « الذين » فى محل نصب بدل من قوله تعالى : « من ينصره » أو فى محل جر تابع للذين فى قوله تعالى :
﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾[٢] .

٣ - ونقل القرطبى عن الزجاج أن « الذين » فى محل نصب على البدل من (من) فى قوله تعالى :
﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ .
وقال غير الزجاج : إنها فى موضع جر على البدل من « الذين » فى قوله سبحانه :
﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾[٣] .

٤ - وذكر النيسابورى أنها بدل من قوله تعالى : « الذين أخرجوا » أو بدل من « من ينصره »[٤] .

٥ - أما ابن كثير فلم يذكر شيئًا[٥] .

تعقيب

١ - أستبعد أن تكون كلمة « الذين » معطوفة على « الذين » فى قوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ أو على « الذين » فى قوله سبحانه : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ أو أن تكون بدلا من « الذين » فى هذه الآية الأخيرة ، لأن الفصل طويل بين المعطوف والمعطوف عليه ، وبين البدل والمبدل منه .

---

(١) تفسير الطبرى ١٧ / ١٢٦.
(٢) الكشاف ٣ / ٣٥.
(٣) تفسير القرطبى ١٢ / ٧٢.
(٤) على هامش الطبرى ١٧ / ٩٣.
(٥) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣٦.

٢ – وخير من هذا أن تكون بدلا من « مَن » فى قوله تعالى : ﴿ من ينصره ﴾ كما ذكر الزمخشرى والقرطبى والنيسابورى .

٣ – لكننى أفضل أن تكون كلمة الذين مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله تعالى : ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ فيكون التقدير مثلا : لهم العاقبة ، أو لهم النصر ، أو هم الغالبون .

الآية السابعة

وهكذا تنسق الفكرة فى قوله تعالى :

﴿ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتًا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾[1] .

فإن الخبر محذوف مفهوم من ختام الآية الكريمة ، والتقدير هو : الذين يجادلون فى آيات الله بغير دليل مبطلون أو محقوقون . أو مطموس على قلوبهم ، بئس الجدال الممقوت هذا ، كذلك يطمس الله على قلوب المتكبرين .

الآية الثامنة

وكذلك فى قوله تعالى :

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتولَّ فإن الله هو الغنى الحميد ﴾[2] .

الخبر محذوف تقديره لا يحيق بخلهم إلا بهم ، أو لا يضرون الله شيئًا ببخلهم .

---

(١) سورة غافر ٣٥.

(٢) سورة الحديد ٢٤.

حذف جواب الشرط

فى القرآن الكريم آيات كثيرة فيها فعل الشرط وجوابه ، مثل قوله تعالى :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾[١] .

لكن جواب الشرط حذف من بعض الآيات الكريمة ، لأن فى الآية نفسها أو فيما بعدها ما يدل عليه ، ولأن حذفه يوحى بضرب من التهويل والتضخيم وإعمال الخيال .

١ - من حذف جواب (لو) قوله تعالى :

﴿ ولو أن قرآنًا سُيِّرت به الجبال ، أو قطِّعتْ به الأرض ، أو كُلِّم به الموتى ، بل لله الأمر جميعًا ﴾[٢] ، أى لو أن قرآنًا حرك الجبال من مواضعها ، أو قطع الأرض وشققها وصدعها ، أو كلم الموتى فأسمعهم واستجابوا له ، لكان هذا القرآن ، لأنه بلغ الحد الأقصى من الترغيب والترهيب ، ومن التبشير والتخويف ، ومن الهداية والرشاد ، وهذا مثل قوله تعالى :

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله ﴾[٣].

ويصح أن يكون جواب الشرط المحذوف هو لو أن قرآنًا اتصف بهذه الصفات لأعرضوا عنه ، وهذا مثل قوله تعالى :

﴿ ولو أننا نزَّلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون ﴾[٤] .

---

(١) سورة النحل ١٢٦

(٢) سورة الرعد ٣١

(٣) سورة الحشر ٢١

(٤) سورة الأنعام ١١١

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فَوْتَ ، وأخذوا من مكان قريب ﴾[1] .

أي لو ترى حالهم وهم فزعون يوم البعث ولم يفلت منهم أحد لرأيت أمرًا عظيمًا جدًّا .

٢ – ومن حذف جواب لولا قوله تعالى :

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾[2] .

وقوله تعالى :

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴾[3] .

فإن جواب لولا محذوف فى الآيتين لتهويل وقعه على النفوس ، والتقدير ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعذبكم أشد العذاب ، ولأوقع بالكاذبين منكم أقسى العقاب .

٣ – ومن حذف جواب إنْ قوله تعالى :

﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ، وما لهم من ناصرين ﴾[4] .

أى إن تحرص على هداهم فلا فائدة فى حرصك ، لأن ضلالهم عنيف لا يتبدل وقد حذف الجواب رفقًا بالنبى عليه الصلاة والسلام ، ودل على المحذوف قوله تعالى : « فإن الله لا يهدى من يضل » .

وكذلك قوله سبحانه :

﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴾[5] .

أى فإن أعرضوا عنك فلا لوم عليك ، لأنك أديت ما يجب عليك ، وبلغت الرسالة ، وليس عليك هداهم ، وقد أدى ختام الآية هذا المعنى كله .

---

(١) سورة سبأ ٥١

(٢) سورة النور ١٠

(٣) النور ٢٠

(٤) سورة النحل ٢٧

(٥) سورة النحل ٨٢

٤ - ومن حذف جواب إذا قوله تعالى :

﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾[1] .

أى إذا قيل لهم اتقوا الله أعرضوا ، بدليل الآية الثانية .

---

(١) سورة يس ٤٥ - ٤٦

الشمال والجنوب*

يبدر إلى الذهن أول وهلة أن الناس جميعًا يعرفون الشمال ويعرفون الجنوب ، لأنهما الجهتان الأصليتان اللتان تكملان الجهات الأصلية الأربع ، وهى الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وقد يتساءل بعض الناس عن السبب فى تخصيص الشمال والجنوب بدراسة ، بل قد يعجب من هذا التخصيص .

فما الداعى إذن لبحث عن الشمال وعن الجنوب ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال ، أضيف إلى العجب من دراسة الشمال والجنوب عجبًا آخر ، هو أن كلمتى الشمال والجنوب لم تردا فى معاجم اللغة بمعنى الجهتين أو الناحيتين المعروفتين ، بل وردت كل منهما على أنها اسم لنوع من الرياح هى الشمال والجنوب .

فلنستشر علماء اللغة ، ثم علماء الجغرافية ، ثم نعقبُ بالرأى .

أولا : فى معاجم اللغة

المعاجم كلها تذكر أن الشرق هو الجهة التى تشرق منها الشمس ، والغرب هو الجهة التى تغرب فيها الشمس .

لكنها لم تذكر - فى مادة شمل وجنب - أن الشمال والجنوب جهتان ، بل ذكرت أنهما ريحان[1] .

---

* بحث ألقيته فى مؤتمر مجمع اللغة العربية مارس ١٩٨٢.

(١) ما عدا المعجم الوسيط فقد ذكر فى مادة شمل أن الشمال الجهة التى تقابل الجنوب ، والريح التى تهب من تلك الجهة ، والجنوب الجهة المقابلة للشمال ، والريح التى تهب منها .

١

الشــمال

قال ابن دريد ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) الريح الشمال معروفة ، ويقال لها شَمال وشَمْأل وشامَل بلا همز[١] .

وقال الأزهرى ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) :

الشمال : ريح تهب من قبل الشام عن يسار القبلة ، والشمأل لغة فيها ، ويقال شَأْمل وشَوْمَل وشَمْل وَشَيمَل .

وأشْمَلَ يومنا : إذا هبت فيه الشمال .

وغدير مشمول : شملته ريح الشمال أى ضربته فيبرد ماؤه .

ونقل المادة عن أبى عُبَيْد وأبى عُبَيْدة وأبى زيد والأصمعى والكسائى والليث وأبى حاتم وابن السِّكِّيت وابن حَبيب[٢] .

وقال الزمخشرى ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) غدير مشمول : تضربه الشَّمال ، وليلة مشمولة : باردة ذات شَمال ، ونوى مشمولة : مفرقة بين الأحبة ، لأن الشَّمال تفرق السحاب[٣] .

وقال ابن منظور ٧١١ هـ (١٣١١ م) : الشَّمال الريح التى تهب من ناحية القطب ، ونقل عن المحكم لابن سيده وعن ثعلب وعن ابن الأعرابى ما سبق أن نقله الأزهرى ، وقال إنها تكون اسمًا وصفه[٤] .

ولم يخالف الفيروزابادى ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) فى شىء من هذا ، وزاد عليه أنها لا تكاد تهب ليلا[٥] .

ثم جاء الزَّبيدى ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) فردَّد ماسُبق به[٦] .

---

(١) الجمهرة لابن دريد ٣ / ٧١
(٢) التهذيب للأزهرى ١١ / ٣٧١
(٣) أساس البلاغة للزمخشرى مادة شمل.
(٤) لسان العرب لابن منظور مادة شمل
(٥) القاموس المحيط للفيروزابادى مادة شمل
(٦) تاج العروس للزبيدى مادة شمل

٢
الجنـــوب

أما الجنوب فقد ذكر ابن دُرَيْد أنها ريح معروفة[١] .

وقال الأزهرى : الجنوب من الرياح حارة ، وهى تهب فى كل وقت ، وَمَهبُّها ما بين مهبى الصبا والدبور .

ونقل عن ابن بُزُرُج وعن الأصمعى وعن ابن السكيت وعن عُمارة[٢] .

وقال الزمخشرى أنها ريح[٣] .

وذكر ابن منظور أنها ريح ، ونقل عن ثعلب وعن ابن الأعرابى وعن الأصمعى وعن عُمارة وعن التهذيب للأزهرى وعن الصحاح للجوهرى ما يدل على أنها ريح ، وأنها عند سيبويه اسم وصفة ، وعارض الفارسى فى هذا[٤] .

وذكر الفيروزابادى أن الجنوب ريح تخالف الشَّمال ، مهبها من مطلع سُهَيْل إلى مطلع الثريا[٥] .

وقال الزبيدى إن الجنوب على وزن صبور ريح تخالف الشَّمال ، تأتى من يمين القبلة[٦] .

ثم ردد المعجم الكبير ما ذكرته المعاجم السابقة ، ولم يذكر أن الجنوب جهة[٧] .

كذلك اتفق شراح القصائد الطوال الجاهلية المسماة بالمعلقات على أن الشمال والجنوب ريحان ، فى شرحهم لبيت امرئ القيس :

فتوضح فالمقراة لم يَعْفُ رسْمُها   لما نَسَجَتها من جَنوب وشَمْأَلِ

---

(١) الجمهرة ١ / ٢١٥
(٢) التهذيب ١١ / ١١٩
(٣) أساس البلاغة مادة جنب .
(٤) لسان العرب مادة جنب
(٥) القاموس المحيط مادة جنب
(٦) تاج العروس مادة جنب
(٧) أصول المعجم الكبير المخطوطة مادة جنب

أى لم يدرس رسمها لما نسجته من الجنوب والشمال ، فهو باق .
وكان الأصمعى يذهب إلى أن الريحين إذا اختلفتا على الرسم لم تُعْفِياه ، ولو دامت عليه واحدة لعفته ، لأن الريح الواحدة تسفى على الرسم فيدرس ، وإذا اعتورته ريحان فسفت عليه إحداهما فغطته ثم هبت الأخرى كشفت عن الرسم ما سفت الأولى .
ففى نسجت ذكر الريح ، لأنه لما ذكرت المواضع والنسج والرسم دلت على الريح ، فكنى عنها لدلالة المعنى عليها[1] .

٣

ولكن فى لسان العرب وفى تاج العروس تعبيرًا آخر جديرًا بالانتباه إليه والحرص عليه ، هو : هذا أمر لأهل المدينة ومن كانت قبلته على ذلك السمت ممن هو فى جهَتَىْ الشَّمال والجنوب[2] .
ففى هذا النص اللغوى الفريد دلالة على أن الشمال جهة ، وعلى أن الجنوب جهة .
وسيتضح من أقوال الجغرافيين جميعًا أن الشمال والجنوب جهتان ، كما أن الشرق والغرب جهتان .

ثانيًا : فى مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين

أما علماء الجغرافية - وهم ذوو الاختصاص - فقد نقلت آراء طائفة منهم ، مرتبة ترتيبًا زمنيًا ، لتتبين دلالة كل من الكلمتين منذ استعملوها .
١ - قال ابن خرداذبة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) : ...... وهو من القطب الشَّمالى عن يساره إلى وسط المشرق ....[3] .

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال . ابن الأنبارى ٣٢٨ هـ (٩٣٩ م) ، وشرح القصائد السبع للزوزنى ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، وشرح القصائد العشر للتبريزى ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م)
(٢) لسان العرب وتاج العروس مادة شرق .
(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبة .

وقال : حد القسطنطينية من الجنوب بحر الشام ، ومن الشّمال بحر الخزر ... وحد تراقية من المشرق السور ومن الجنوب عمل مقدونية ، ومن الشّمال بحر الخزر .

وعمل مقدونية حده من المشرق السور ومما يلى الجنوب بحر الشام[١] .

وقال : رومية لها ثلاثة جوانب ، منها الشرقى والجنوبى والغربى فى البحر والجانب الشمالى يلى البحر[٢] .

وهذه نصوص قديمة فيها كلمة الشمال والشمالى والجنوب والجنوبى للدلالة على الجهة .

٢ - وقال الهمذانى - أبو عبد الله أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه - حوالى ٢٩٠ هـ (١٩٠٣ م)[٣] .

عرض الأرض من القطب الجنوبى ... إلى القطب الشمالى[٤] ...

وقال : والبحر الجنوبى[٥] ....

وقال : اليمامة واديان يصحبان من مهب الشمال ويفرقان فى مهب الجنوب[٦] .

فوصف القطبين بأنهما شمالى وجنوبى .

ووصف البحر بأنه جنوبى .

وعين واديين بأنهما ينبعان من مهب الشمال ، ويصبان فى مهب الجنوب ، ولا معنى للمهب إلا أنه مكان الهبوب أى الجهة .

---

(١) السابق ١٠٥

(٢) السابق ١١٣

(٣) الهمذانى بالذال المعجمة لم تعرف سنة وفاته ، ولكن المعروف أنه انتهى من تأليف كتابه (البلدان) سنة ٢٨٩ هـ عقب وفاة الخليفة المقتصد . وهو كتاب ضم فى خمسة أجزاء فى حوالى ألفى صفحة ، بين أن فيه مختصره الذى عمله على الشيرازى سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) راجع بروكلمان ٤ / ٢٣٨ والأدب الجغرافى العربى تأليف: أغناطيوس كراتشكوفسكى ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ١٦٢ ومعجم الأدباء ٤ / ١٩٩ ، والأعلام للزركلى ، والفهرست لابن النديم ٢١٩ وذكر معجم المؤلفين أنه توفى سنة ٣٦٥ هـ .

(٤) البلدان للهمذانى .

(٥) السابق ٧

(٦) السابق ٥٨

٣ – وذكر ابن جرير الطبرى أن الإسكندر المقدونى دخل الظلمات مما يلى القطب الشمالى والشمس جنوبيه[١] .

٤ – وقال الهمدانى ٣٣٤ هـ (٩٤٥م) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب : فجنوبيها اليمن ، وشماليها الشام[٢] .

وقال : تظهر على أهل الجنوب كواكب لا يراها أهل الشمال ، ويظهر على أهل الشمال ما لا يراه أهل الجنوب[٣] .

وقال : فإذا مالت الشمس فى الشمال .... سقطت الأظلال بها إلى الجنوب ، وإذا مالت .... سقطت أظلالها إلى الشمال[٤] .

٥ – وقال المسعودى ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) :

وأما أهل الربع – ربع الأرض – الشمالى ، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين فى الشمال كالصقالبة والإفرنجة .... ومن كان منهم ، أوغل فى الشمال فالغالب عليهم ....

وأما أهل الربع الجنوبى كالزنج ....[٥] .

والجنوب .... فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية الشمال .... فبعرض ما بين الشمال والجنوب[٦] .

وقال : فما كان من الفلك آخذًا من الجنوب إلى الشمال يسمى العرض ، وما كان آخذًا من الشرق إلى الغرب يسمى الطول[٧] .

٦ – وقال الإصطخرى ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) :

وقسمة الأرض على الجنوب والشمال .... فما كان فى حد الشمال من

---

(١) تاريخ الطبرى ١ / ٥٧٨

(٢) صفة جزيرة العرب للهمذانى (الهمدانى بالدال المهملة)

(٣) السابق ٣

(٤) السابق ١١

(٥) التنبيه والإشراف للمسعودى ٢٢

(٦) مروج الذهب للمسعودى ١ / ٨٦

(٧) السابق ١ / ٨٩

هذين القسمين فأهله بيض ، وكلما تباعدوا فى الشمال ازدادوا بياضًا ....
وما كان مما يلى الجنوب من هذين القسمين فان أهله سود ، وكلما تباعدوا فى الجنوب ازدادوا سوادًا[١] .

٧ - وقال المقدسى ٣٧٥ هـ (٤٠٥ م) :

.... القطب الجنوبى .... إلى الشمال ، .... فالخلق على الربع الشمالى من الأرض ، والربع الجنوبى خراب[٢] .

٨ - وقال أحمد بن محمد المرزوقى الأصفهانى ٤٢١ هـ (١٠٣٠م) :

أحد السماكين جنوبى وهو الأعزل ، والآخر وهو الرامح شمالى .... متحدره من الجنوب ....

ونقل عن الفراء قوله : البوارج الرياح الصيفية ، وسميت بذلك لأنها هى السموم التى تأتى من الشمال .... وجهة القطب الجنوبى وجهة القطب الشمالى .... والتى تهب من جهة القطب الجنوبى هى الجنوب ، والنعامى وهى تهب من جهة القطب الشمالى وتسمى الشمال[٣] .

وتكرر هذا فى مثل قوله : ولكنى أعنى بالشمال والجنوب اللذين هما عن جانبى خط الاستواء[٤] .

فترددت فى كتابه كلمة الشمال والشمالى وكلمة الجنوب والجنوبى .

٩ - وقال البيرونى ٤٤٠ هـ (١٠٤٨م) :

.... عند تناهى قرب الشمس من القطب الشمالى[٥] .

وقال .... البلاد المصاقبة لمقرهم فى مشارق الأرض وشمالها[٦] .

١٠- وقال الإدريسى ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) :

والخلق بجملته على الربع الشمالى من الأرض ، وأيضًا فإن الربع

---

(١) المسالك والممالك للإصطخرى ١٦.
(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ٥٩
(٣) الأزمنة والأمكنة للمرزوقى ١ / ٢١٦
(٤) السابق ٢ / ٨٥
(٥) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى ٨
(٦) السابق ٣٦

الجنوبى غير مسكون[١] .

وقال : إلى شمال التيه .... إلى جنوب وسطها .... فيمر فى جهة الشمال .... فيتصل من جهة الجنوب بأرض هرقلية[٢] .

١١- وقال ياقوت الحموى ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) :

الخلق فى الربع الشمالى من الأرض ، والربع الجنوبى خراب .... العمران فى الجانب الشمالى من الأرض أكثر منه فى الجانب الجنوبى ، ويقال إن فى الشمالى أربعة آلاف مدينة ، وإن كل نصف من الأرض ربعان ، فالربعان الشماليان هما النصف المعمور .... فهذا الربع غربى شمالى .... فهذا الربع شرقى شمالى ، وكذلك النصف الجنوبى فهو ربعان : شرقى جنوبى .... وربع غربى لم يطأه أحد[٣] .

واختلف قوم فى هذه الأقاليم السبعة : فى شمال الأرض وجنوبيها أم فى الشمال دون الجنوب . وذهب الأكثرون إلى أن الأقاليم السبعة فى الشمال دون الجنوب ، لكثرة العمارة فى الشمال وقلتها فى الجنوب ، ولذلك قسموها فى الشمال دون الجنوب[٤] .

١٢- وقال ابن سعيد المغربى (على بن موسى) ٦٨٥ هـ (١٣٨٦ م) :

عرض المعمور أقصاه فى الجنوب إلى أقصاه فى الشمال ٨٠ درجة ، وما بعد ذلك فى الجنوب لا يسكن ، لقوة حرارة الشمس .... وما بعده فى الشمال لا يسكن ، لقوة البرد والجمد .

ومجموع المعمور مقسوم على تسعة أقسام ، المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب .... إلى أقصى العمارة فى الشمال[٥] .

وقال : المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب عرضه ١٦ درجة ، لا يظهر فيه البحر المحيط من المغرب الأقصى ، ولا فى الجنوب ..

(١) نزهة المشتاق للإدريسى ٨

(٢) السابق ١١

(٣) معجم البلدان لياقوت ١ / ١٩

(٤) السابق ١ / ٢٥

(٥) بسط الأرض فى الطول والعرض لابن سعيد ١١

وقال : كما تدخل إليها خمسة أنهار من الجانب الشمالى[١] .

وقال : وتحتها بمصر نيل مقدشو الخارج فى شمال الخط .... ومجالات أكراو فى شمالها[٢] .

وقال : المعمور من الأرض فى شمالى الأقاليم السبعة[٣] .

ولقد ردد ابن سعيد الدلالة على جهة الشمال وعلى جهة الجنوب بقوله الشمال والجنوب تارة ، والشمالى والجنوبى تارة ، كما فعل كثير من سابقيه .

١٣- وأجتزئ من أبى الفداء ٧٣٢ هـ (١٣٣٠ م) بقوله :

خط الاستواء يفصل الأرض بنصفين ، أحدهما شمالى ، والآخر جنوبى .... أحد الشماليين هو الربع المسكون .... وأما جنوب المغرب فإنه لم يصل أحد فيه إلى البحر ، وكذلك شمال المشرق[٤] .

١٤- وهكذا ترددت كلمة الشمال الشمالى والجنوب والجنوبى فى نهاية الأرب للنويرى ٧٣٢ هـ (١٣٣٠ م)[٥] .

وفى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى[٦] ٧٤٨ هـ (١٣٤٦ م) .

وفى رحلة ابن بطوطة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م)[٧] .

وفى مقدمة ابن خلدون ٨٠٨ هـ (١٤٠٦ م)[٨] .

وفى صبح الأعشى للقلقشندى[٩] ، وقد ذكر أهل مصر يسمون جهة

---

(١) السابق ١٢

(٢) السابق ١٣

(٣) السابق ١٣٣ .

(٤) تقويم البلدان لأبى الفداء ٥ .

(٥) نهاية الأرب ١ / ٢٣٣ ، ٢٣٧

(٦) مسالك الأبصار ١ / ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩

(٧) رحلة ابن بطوطة فى مواضع متفرقة .

(٨) مقدمة ابن خلدون ٤٢٥ ، ٤٣٤ ، ٤٥٠ ، ٤٨٦ .

(٩) صبح الأعشى ٣ / ٢٢٤

الجنوب القبلية ، لأنها فى جهة قبلتهم ، ولهذا يبدءون بها فى التحديد[1] .

لعل فيما سبق ما يعزز الصواب فى إطلاق الشمال والجنوب على الجهتين المكملتين للجهات الأربع ، ولأنه ليس فى اللغة ما يمنع هذا الإطلاق ، على الجهة وعلى الريح التى تهب منها .

وإذا كانت كل من الكلمتين قد سمى بها نوع من الريح ، فإن هذا لا يمنع من أن الريح سميت بالجهة التى تهب منها ، فالشمال جهة ، والشمال أيضًا الريح التى تهب من تلك الجهة ، وكذلك الجنوب .

وإنه ليزيد هذا تعزيزًا :

١ - أن ابن منظور والزبيدى ذكرا فى مادة شرق أن الشمال والجنوب جهتان .

٢ - وأن المرزوقى الأصفهانى نقل فى كتابه الأزمنة والأمكنة عن الفراء قوله : البوارج الرياح الصيفية ، وسميت بذلك لأنها هى السموم التى تأتى من الشمال[2] . فجاءت كلمة الشمال فى هذا النص المنقول عن الفراء دالة على الجهة .

٣ - جاء فى لزوميات أبى العلاء المعرى قوله :

كذاك الدهر إظلامٌ وصبحٌ وريحٌ من جنوب أو شَمالِ
فيا دار الخسار ألا خلاصٌ فأذهب فى الجنوب أو الشمال[3]

والجنوب والشمال هنا جهتان لا ريحان .

٤ - ثم إن علماء الجغرافية أجمعوا على أن كلا من الشمال والجنوب جهة معينة ، وتردد فى مؤلفاتهم كلمات الشمال والشمالى والجنوب والجنوبى كما سبق .

وعجبٌ أنه لم يرد فى المعاجم اللغوية إطلاق الشمال والجنوب على الجهتين ، كما جاء إطلاق الشرق والغرب ، مع أن مؤلفى هذه المعاجم منذ

---

(١) يقصد تحديد الأرض الزراعية وغيرها.
(٢) الأزمنة والأمكنة للمرزوقى ١ / ٢١٦.
(٣) اللزوميات ٢ / ٢٣٦ ، ٢٣٧

ابن دريد مؤلف الجمهرة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) والأزهرى مؤلف التهذيب ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) إلى الزبيدى مؤلف تاج العروس ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) عاصروا الجغرافيين الذين أطلقوا كلمتى الشمال والجنوب على الجهتين[1]، أوعاشوا بعدهم، وكان من البديهى أن يطلعوا على مؤلفاتهم، وأن يطلقوا الشمال والجنوب على الناحيتين المعروفتين كما أطلقوا الشرق والغرب، أو ينقلوا عن علماء الجغرافية هذا الإطلاق، وربما كانت المشكلة تبدو أهون وقعًا وأقل تعقيدًا لو أن اللغويين لم يطبقوا جميعًا على أن الشمال والجنوب ريحان، على حين أن علماء الجغرافية أجمعوا على أن الشمال والجنوب ناحيتان أو جهتان.

ولكن هذا التعقيد سرعان ما يزول إذا ما دللنا بكلمة الشمال على الجهة المعروفة، وعلى الريح التى تهب منها، فهى الريح الشمال، أو هى الشمال، وإذا ما أطلقنا كلمة الجنوب على الناحية وعلى الريح التى تهب منها، فهى الريح الجنوب، أو هى الجنوب[2]، لأنها اسم وصفة كما سبق وإن عارض فى هذا الفارسى.

ولهذا يصح تفسير بيت امرئ القيس:

فتوضح فالمقراة لم يَعْفُ رسْمُها ... لما نسجَتْها من جَنُوب وشَمْألِ

بأن رسم الطلل باق لأنه معرض لريحين متقابلتين تهبان عليه هما الريح الجنوب والريح الشمال، أو هما الجنوب والشمال، لأن إحداهما تعرى الرسم والأخرى تكسوه.

---

(١) مثل ابن خرداذبة ٢٨٠ هـ والهمدانى ٣٣٤ هـ المسعودى ٣٤٦ هـ والإصطخرى ٣٤٦ هـ والهمذانى ٣٦٥ هـ والمقدسى ٣٧٥ هـ والمرزوقى الاصفهانى ٤٢١ هـ والبيرونى ٤٤٠ هـ.

(٢) الشمال والجنوب اسم وصفةٌ كما سبق.

وَزْن فُعَالَة
الدال على نُفايات الأشياء ومتناثراتها وبقاياها

وردت فى المعاجم اللغوية كلمات كثيرة على وزن فُعالة [بضم الفاء وفتح العين] للدلالة على نفايات الأشياء وبقاياها ومتناثراتها.

ومن الميسور أن نقيس على هذه الكلمات كلمات أخرى كثيرة ، لم تنص المعاجم عليها . ويسرنى أن أتقدم بهذا البحث إلى لجنة الأصول بالمجمع اللغوى الموقَّر .

وقد رأيت أن أمهد للموضوع بكلمة موجزة عن القياس فى النحو ، ثم أذكر الكلمات التى استخرجتها من المعاجم ، وبعدها الكلمات التى أقترح إقرارها بالقياس ، لبيان أن وزن فُعالة قياسى للدلالة على نفايات الأشياء ورديئها وما يتناثر منها ويتساقط .

[١] القياس فى النحو

نقل السيوطى عن ابن الأنبارى أن القياس حمل غير المنقول على المنقول إذا كان فى معناه ، وهو معظم أدلة النحو ، والمعوَّل عليه فى غالب مسائله .

وقال إن إنكار القياس فى النحو لا يتحقق ، لأن النحو كله قياس ، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو ، ولو لم يجز القياس ، واقْتُصِر على ما ورد فى النقل من الاستعمال لبقي كثير من المعانى لا يمكن التعبير عنها ، لعدم النقل ، وذلك منافى لحكمة الوضع ، فوجب أن يوضع وضعًا قياسيًّا عقليًّا لا نقليًّا ، بخلاف اللغة ، فإنها وضعت وضعًا نقليًّا لا عقليًّا ، فلا يجوز القياس فيها ، بل يقتصر على ما ورد به النقل[1] .

---

(١) لجنة الأصول بالمجمع ثم مؤتمر المجمع سنة ١٩٧٨ .

ثم ذكر السيوطى أن القياس أربعة أقسام : حمل فرع على أصل ، وحمل أصل على فرع ، وحمل نظير على نظير ، وحمل ضد على ضد[1] .

وفى رأى المازنى وابن جنى أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول ، وإنما سمعت البعض فقست عليه غيره ؟

وقد اشتقت العرب من الأعجمى كما تشتق من أصول كلامها ، نحو درهمت الخبازى ، أى صارت كالدراهم ، فاشتقت من الدرهم وهو اسم أعجمى .

ومنفعة الاشتقاق لصاحبه أن يسمع الرجل اللفظة ، فيشك فيها ، فإذا رأى الاشتقاق قابلًا لها أُنِس بها ، وزال استيحاشه منها ، فهل هذا إلا اعتماد فى تثبيت اللغة على القياس[2] ؟

ولقد عجب ابن جنى ممن يستبعدون الأخذ بالقياس ، وقال إنك لا تجد مختصرًا من العربية إلا وهذا المعنى فى عدة مواضع منه ، ألا تراهم يقولون فى وصايا الجمع إن ما كان من الكلام على فَعْل (على وزن نهر) فتكسيره على أَفْعُل (بضم العين) مثل كلب وأكلب وكعب وأكعب وفرخ وأفرخ ، وما كان على غير ذلك من أبنية الثلاثى فتكسيره فى القلة على أفعال نحو جَبَل وأجبال وعُنُق وأعناق وعَجز وأعجاز وضِلَع وأضلاع وكبد وأكباد .

فليت شعرى هل قالوا هذا لِيُعْرف وحده ؟ أو ليعرف ويقاس عليه غيره ؟ ألا تراك لو لم تسمع تكسير واحد من هذه الأمثلة ، بل سمعته منفردًا أكنت تحتشم من تكسيره على ما كسِّر عليه نظيره ؟

لا ، بل كنت تحمله عليه للوصية التى تقدمت لك فى بابه ، وذلك كأن يحتاج إلى تكسير الرِّجْز الذى هو العذاب ، فكنت قائلًا لا محالة : أرجاز ، قياسًا على أحمال ، وإن لم تسمع أرجازًا فى هذا المعنى .

ثم اختتم رأيه بقوله : ومعاذ الله أن نَدَّعى أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة

---

(١) الاقتراح فى علم النحو للسيوطى ٤٥ – ٥٥

(٢) الخصائص لابن جنى ٣٦٢ – ٣٧٤ والاقتراح للسيوطى ٥٢

والقياس لكن ماأمكن ذلك فيه قلنا به، ونبهنا عليه ، كما فعله مَنْ نحن له متّبعون، وعلى مُثُله وأوضاعه حاذون[1].

[٢] كلمات على وزن فُعالة

رجعت إلى لسان العرب وأساس البلاغة والقاموس المحيط وتاج فاستخرجت الكلمات الآتية :

١ - البُرادة : (١) ما يسقط من الذهب والفضة عند بر السُّحالة.
(٢) سفْلة الناس.
(٣) قشر البرّ والشعير ونحوهما.

٢ - البُراية : (١) النُّخامة.
(٢) ما يسقط من الحديد عند برده.

٣ - البُضاضة : الماء القليل.

٤ - التُّلاوة : بقية الدَّين وغيره.

٥ - الثُّمالة : البقية من الطعام والشراب فى البطن.

٦ - الجُذامة : مايلتقط من التمر بعد ما يصرم، يلتقط من

٧ - الجُفافة : ما ينتثر من الحشيش والقت ونحوه.

٨ - الحُتامة : ما يبقى على المائدة من طعام أوما سقط منه

٩ - الحُثالة : (١) ما يتبقى على المائدة من طعام.
(٢) ما لا خير فيه.
(٣) الردىء من كل شىء.

١٠- الحُسافة : (١) ما تناثر من التمر الفاسد.
(٢) سُحالة الذهب والفضة.

١١- الحُشاشة : بقية الروح فى المريض أوالجريح.

---

(١) الخصائص ٤٣٩ - ٤٤٢

١٢- الحُفالة : (١) الحثالة.
(٢) ما رقَّ من عكر الدهن.
(٣) رغوة اللبن.
١٣- الحُكاكة : ما يسقط من الشيء عند حكه.
١٤- الحُلاءة : (١) قشرة الجلد التى يقشرها الدباغ ممايلى اللحم.
(٢) ما يحك بين حجرين ليكتحل به.
١٥- الحُلانة : نُتافة الصوف.
١٦- الخُثارة : عكارة اللبن وبقيته ووسخه.
١٧- الخُراشة : ما يتساقط من الشيء إذا خرش بحديدة ونحوها.
١٨- الخُراطة : ما يتساقط من خرط الحديد، أوالخشب، كالنُّحاتة.
١٩- الخُساسة : (١) القليل من المال.
(٢) عُلالة الفرس.
٢٠- الخُشارة : (١) الردىء من كل شيء.
(٢) ما يتبقى على المائدة.
(٣) سفلة الناس.
٢١- الخُصاصة : (١) ما يتبقى فى الكرم بعد قطافه.
(٢) الشيء القليل اليسير.
٢٢- الخُلالة : بقية الطعام بين الأسنان.
٢٣- الخُمامة : (١) الكناسة.
(٢) ما ينتثر من الطعام.
٢٤- الرُّذالة : الردىء من كل شيء.
٢٥- السُّباطة : الكناسة تطرح بأفنية البيوت.
٢٦- السُّحالة : ما يسقط من الذهب والفضة عند بردهما.
٢٧- السُّفالة : السِّفلة.
٢٨- الشُّفافة : بقية الماء فى الإناء.

٢٩- الشُّواية : بقية قوم أو مال هلك.
٣٠- الصُّبابة : بقية الماء واللبن.
٣١- الصُّفارة : ما ذوى من النبات.
٣٢- الطُّفاوة : ما طفا من زبد القِدْر.
٣٣- العُصافة : ما يسقط من السنبل مثل التبن.
٣٤- العُفافة : بقية اللبن فى الضرع بعد أن امتص أكثره.
٣٥- العُلالة : (١) بقية اللبن وغيره.
(٢) ما يتعلل به.
٣٦- الغُدارة : ما أهمل من الشيء وترك.
٣٧- الغُسالة : ما يخرج من الثوب بغسله.
٣٨- الفُسالة : ما يتناثر من الحديد عند ضربه وطبعه.
٣٩- الفُضالة : الفضلة وهى البقية من الماء ونحوه.
٤٠- القُرارة : ما بقى فى القدر من مرق ونحوه.
٤١- القُراضة : (١) ما يسقط بالقرض مثل قراضة الذهب والفضة.
(٢) قراضة الثوب وهى ما يقصه الخياط ويلقيه.
(٣) قراضة الفأر وهى فُضالة ما قرضه من خبز ونحوه.
(٤) قراضة المال وهى رديئه وخسيسه.
٤٢- القُرامة : ما يلتزق من الخبز بالتنور.
٤٣- القُشارة : ما يسقط من الشيء عند قشره.
٤٤- القُشامة : ما يبقى على المائدة ونحوها مما لا خير فيه.
٤٥- القُطافة : ما يسقط من العنب عند قطفه.
٤٦- القُلامة : ما يسقط من الأظفار عند تقليمها.
٤٧- القُمامة : (١) الكُناسة.
(٢) وسخ البيت.
٤٨- الكُدادة : ما يبقى فى أسفل القدر.
٤٩- الكُدامة : بقية الشيء المأكول.

٥٠- الكُرابة : الجذامة.
٥١- الكُسارة : ما تكسر من الشيء.
٥٢- الكُناسة : القمامة.
٥٣- المراقة : ما انتتف من الصوف أومن الكلأ القليل.
٥٤- المراطة : ما يسقط من الشعر عند التسريح.
٥٥- المشاطة : ما يتساقط من الشعر عند الامتشاط.
٥٦- المشاقة : ما يتساقط أويطير من الشعر أو الكتان عند مشطه.
٥٧- المُصالة : ما يقطر من الحب أو ما يسيل من الأقط.
٥٨- المُضاغة : ما مضغ.
٥٩- المُواصة : غُسالة الثوب.
٦٠- النُّتافة : ما يسقط من الشعر عند نتفه.
٦١- النُّثارة : ما يتناثر من الشيء عند نثره وتفريقه.
٦٢- النُّحاتة : (١) البُراية.
(٢) ما يسقط من الخشب عند النحت.
٦٣- النُّخاعة : ما يخرج من الصدر أوالخيشوم.
٦٤- النخامة : النُّخاعة.
٦٥- النُّسافة : ما يسقط من المِنْسف عن النَّسْف.
٦٦- النُّسالة : ما يتساقط من الصوف والوبر والريش.
٦٧- النُّشارة : ما يسقط من الخشب عند نشره.
٦٨- النُّفارة : (١) الردىء من الشيء.
(٢) بقيته.
٦٩- النُّفاضة : (١) ما يسقط من الشيء المنفوض.
(٢) نُفاضة السواك.
٧٠- النُّفاية : النفارة.
٧١- الهتامة : ما تكسر من الشيء.

[٣] اقتراح كلمات مقيسة لتأدية المعنى نفسه

أقترح إقرار الكلمات الآتية، قياسًا على نظائرها السابقة، لتؤدى معانى جديدة، تثرى اللغة، وتسعف المعبر والمترجم.

وأقترح إصدار قرار بقياسية وزن فُعالة للدلالة على بقايا الأشياء ونفاياتها ورديئها وما يتساقط منها عند المزاولة والمعالجة وهذه الكلمات هى:

١ - الأُكالة : ما يبقى على الخوان بعد الأكل.

٢ - البُناية : ما يتبقى من أدوات البناء بعد البناء كالطوب والرمل والجير.

٣ - الثُّمالة : ما يتبقى فى الكوب أو الكأس بعد الشراب.
[وهذا لا يتعارض وما جاء فى القاموس المحيط: الثمالة والثميلة البقية من الطعام والشراب فى البطن].

٤ - الجُرادة : ما يتساقط من العود عند قشره، أو من الشعر عند نزعه.

٥ - الجُراشة : (١) ما يتساقط من الشىء حين حكه وقشره.
(٢) ما يتساقط من الجلد حين دلكه.

٦ - الجُزارة : ما يتبقى بعد الذبح والسلخ والجَزْر.

٧ - الجُلادة : ما يتخلف من تجليد الكتب.

٨ - الحُدادة : ما يتبقى من الحداد بعد عمله.

٩ - الحُصادة : ما يتبقى فى الحقل بعد الحصد.

١٠- الحُلاقة : ما يتناثر من الشعر عند حلاقته.

١١- الخُبازة : ما يتبقى بعد الخبز.

١٢- الخُياطة : (١) ما يتبقى بعد التفصيل والقص والخياطة.
(٢) ما يتساقط عند التفصيل.

١٣- الدُّخانة : بقية دخان النار.

١٤- الدُّرامة : ما يتناثر من الأظفار حين قصها وتسويتها.

١٥- الدُّكاكة : (١) ما يتبقى من الشيء بعد دقه وهدمه.

(٢) ما يتبقى من الأرض غير مستو بعد تسوية مرتفعها ومنخفضها.

١٦- الدُّكالة : ما يبقى من الطين بعد جمعه باليد والتطيين به.

١٧- الرُّصافة : البقية بعد عملية الرصف.

١٨- السُّحاقة : ما يبقى بعد السحق والدق.

١٩- السُّلاقة : (١) ما يبقى من اللحم على العظم بعد نزع اللحم.

(٢) ما يبقى من النبات الذى قضى عليه البرد.

(٣) ما يبقى من الشعر أو الوبر على شيء مسلوق بالماء الحار.

٢٠- الصُّقالة : ما يتناثر من صقل الشيء وجلائه.

٢١- الطُّباعة : بقية الورق والحبر بعد الطبع.

٢٢- الطُّهاية : (١) البقية بعد طهو الطعام.

(٢) ما يرمى من الطعام فى أثناء الطهو.

٢٣- العُجانة : البقية بعد عجن العجين.

٢٤- العُلافة : ما يتبقى فى المِذْود من علف الدابة.

٢٥- الفُتاتة : ما يتبقى من الشيء بعد دقه وكسره.

٢٦- القُراشة : ما يتبقى بعد قطع الشيء وجمعه من هاهنا وهاهنا.

٢٧- الكُسارة : ما يتبقى بعد كسر الشيء.

٢٨- المساحة : (١) ما يتناثر من الشيء حينما يمسح وينظف.

(٢) ما يتبقى بعد المسح.

٢٩- المُصاصة : (١) فضلة الشراب بعد امتصاصه.

(٢) بقية أعواد القصب بعد مصها.

٣٠- النُّجادة : (١) ما يتطاير من القطن أو الصوف عند التنجيد.

(٢) ما يتبقى بعد التنجيد.

٣١- النُّجارة : (١) ما يتناثر من النَّجْر.
(٢) ما يتبقى بعد النجر من نُحاتة.
٣٢- النُّدافة : ما يتطاير من القطن أوالصوف عند ضربه بالمندف.
٣٣- النُّقالة : ما يتبقى من الأشياء بعد نقلها.
٣٤- النُّكاثة : ما يتساقط من الأكسية البالية عند نقضها لتغزل ثانية.
٣٥- الهُراسة : ما يتخلف من الشيء عند هرسه ودقه.
٣٦- الوُساقة : ما يتبقى من الشيء بعد جمعه وحمله.

إضافات لغوية

الماء الفاقد

يقول كثير من الناس ويكتبون: (المياه الفاقدة) و(الأموال الفاقدة) و(الكهرباء الفاقدة) إلخ.

فماذا نرى فى هذا التعبير ؟

١ - حينما نرجع إلى المعاجم نجدها تنص على أن الفعل (فقد) فعل متعد فيقال: فقد الرجل الشيء يفقده فقدًا وفقدانًا وفقودًا: عدمه فالشيء فقيد ومفقود. ولهذا يبدو أن كلمة (فاقد) غير صحيحة.

٢ - ولكن ما الذى يمنع من أن تكون كلمة فاقد بمعنى مفقود؟
كأن المياه فقدت نفسها وكذلك الأموال والكهربا.
مثل عيشة راضية أى مرضية، وماء دافق أى مدفوق.
ومثل نهار صائم وليل قائم.
ومثل طاعم بمعنى مطعوم، وكاسٍ بمعنى مكسو.
ومنه قول الشاعر:

دع المكارم لا ترحـل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

استكمال مادة لغوية (بلور)

البَلُّور (على وزن تَنُّور) والبِلَّوْر (على وزن سِنَّوْر) والبِلَوْر على وزن (سِبَطْر) جوهر معروف أوحجر أبيض شفاف.

وقد أورد المعجم الوسيط كلمات مشتقة من كلمة بلور هي :

بَلْوَر الشيءَ جعله بلورات، وبلور الفكرة والمسألة استخلصها ونفى عنها الغموض والفضول، وتبلور مطاوع بلور.

نستطيع أن نضيف إلى هذه الكلمات التى أوردها المعجم الوسيط أربع كلمات أخرى هي :

١ - البَلُّورة : الحبة المستديرة من السكر أو الملح وما شاكلهما، جمعها بلورات.

٢ - البَلُّورة : نوع من الزجاج السميك يوضع فوق المكاتب والمناضد والموائد وما يشبهها.

٣ - البَلُّورة : الكرة المدلاة من بعض الثريات.

٤ - البَلُّورات : كرات الجليد الصِّغار التى تنزل أحيانًا من مطر إعصارى، وتسمى بلورات على سبيل التشبيه.

ملابس جاهزة

كثيرًا ما تجرى على الألسنة والأقلام كلمة ملابس جاهزة وثوب جاهز، ومسكن جاهز.

فما رأى اللغة فى هذه الكلمة ؟

المعنى فى المعاجم: الجهاز بفتح الجيم وكسرها كل ما يحتاج إليه كجهاز العروس، وفيها الفعل المضعف جهزه بتشديد الهاء تجهيزًا فتجهز، أى أعده، يقال لجهاز العروس والمسافر وغيرهما.

وفيها أيضًا الفعل المجرد جهز بفتح الهاء، يقال جهز على الجريح وأجهز عليه أى قتله.

وليس فى المعاجم كلمة جاهز أوجاهزة.

وأرى أنه من الممكن اعتبار الفعل الرباعى المضعف جهز مشتقًّا من فعل ثلاثى مهمل هو جهز على وزن نصر أوعلم للدلالة على أن الشىء قد تم واكتمل، فتكون كلمة جاهز وكلمة جاهزة اسم فاعل من هذا الفعل الثلاثى المهمل، مثل نضج فهو ناضج، ورسب فهو راسب وثبت فهو ثابت وسرح فهو سارح.

استكمال كلمة علاوة

ورد في لسان العرب وفى القاموس المحيط وفى تاج العروس أن العلاوة من كل شيء ما زاد عليه، وهى أيضًا ما على فوق حمل البعير وزاد عليه، وما علق على البعير بعد تمام حمله كالسقاء والسفود.

وقد ذكر المعجم الوسيط عدة معان مستحدثة لكلمة العلاوة، ونستطيع أن نزيد عليها معنى آخر يتداوله الناس فى خطبهم وفى مقالاتهم وهو القول الذى يضاف إلى قول سابق مثل:

سبق أن دللت على هذه الفكرة بثلاثة أدلة، وأنا الآن أضيف إليها علاوة على ما سبق دليلًا رابعًا.

كتاب قَيِّم

شك بعض الباحثين فى صحة وصف الكتاب ونحوه بأنه قيِّم بمعنى أنه نفيس ويبدو لى أن الشك تسرب إليهم من أن كلمة (قيِّم) ليست فى القاموس المحيط بهذا المعنى وأن الذى يفهم من ورود الكلمة فى أساس البلاغة إنما هو الدوام والثبات، وليس المراد من وصف الكتاب بأنه قيم دوامه وثباته.

لكننى وجدت فى لسان العرب وفى تاج العروس: كتب قيمة أى مستقيمة تبين الحق من الباطل، وأمر قيم أى مستقيم، وخلق قيم أى حسن، ودين قيم أى لا زَيْغ فيه.

لهذا أرى أن وصف الكتاب ونحوه بأنه قيم أى نفيس صحيح لا غبار عليه.

العِمالة

يستعمل الناس كلمة العِمالة للدلالة على العمل وعلى العُمَّال أى العَمَلة .

ولكن الذى فى المعاجم أن العُمالة مثلثة العين هى العُمْلة بضم العين وسكون الميم وبكسر العين وسكون الميم أى أجر العمل .

ومن الميسور أن نُصوِّب كلمة عِمالة فى الاستعمال المتداول ، فنقول إنها مجاز علاقته السببية ، لأن العمل هو السبب فى الأجر والأصل فى استحقاقه ، ولا أجر بغير عمل أو عِمالة .

لهذا يصح قولهم : العِمالة الزائدة ، والعِمالة الناقصة والعِمالة الزراعية ، والعِمالة الصناعية ؟

التسعيرة الجبرية

يتردد هذا الاصطلاح مرات فى كل يوم على الأقلام وعلى الألسنة . وأرى أنه صحيح :

١ - لأن كلمة (تسعيرة) قديمة فى المعاجم ، فى القاموس المحيط ، سعَّروا تسعيرًا : اتفقوا على سعر .

٢ - ولأن كلمة (جبرية) من قولهم : جبره على الأمر إذا أكرهه عليه وقهره ، مثل أجبره ، كما فى القاموس المحيط والمعجم الوسيط .

٣ - فالتسعيرة الجبرية هى التسعيرة الإجبارية الملزمة للبائع وللمشترى وهذا صحيح .

حتى أنت يارفيق الجهاد

لما ترجمت إلى اللغة العربية قصة يوليوس قيصر من أعمال شكسبير جاء فيها قوله لصديقه بروتس حينما رآه يشترك فى مؤامرة اغتياله: «حتى أنت يا بروتس».

وخطَّأ بعض اللغويين فى ذلك الوقت هذا الأسلوب، وقالوا إن الصواب وأنت أيضًا يا بروتس.

لكن هذه التخطئة موضع نظر، لأن من مواضع استعمال حتى أنها تجىء للابتداء، أى أنها حرف تبدأ بعده الجمل وتستأنف.

وقد تكون هذه الجمل المستأنفة اسمية، مثل:

فما زالت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماءُ دجلة أشكلُ

ومثل:

فواعجبًا حتى كليبٌ تسبنى.

وقد تكون الجمل المستأنفة فعلية فعلها مضارع نحو:

يغشون حتى ما تهر كلابهم.

أو فعلها ماض نحو قوله تعالى:

﴿ثم بدّلْنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا﴾.

لهذا أرجح صحة العبارات الآتية:

١ – حتى أنت يا بروتس (أى حتى أنت يا بروتس تخوننى).

٢ – حتى أنت يا رفيق الجهاد (فى مقام الدهشة وخيانة الصديق).

٣ – نصت على هذا المعاجم اللغوية حتى المخصَّصُ (أى أن المخصص لابن سيده) نص على هذا أيضًا.

٤ – نجح الطلبة حتى المتخلفون فى ثلاث مواد.

٥ – أثمرت الحديقة حتى الشجرات الصغار.

مناورة

يشيع فى لغة الجيش قولهم: قام الجنود بمناورة حربية.

وقد عرفها المعجم الوسيط فى مادة (منر) بطبعته الثانية بأنها عملية عسكرية يقوم بها فريق من الجيش يقاتل بعضه بعضًا على سبيل التدريب والخديعة، وذكر أن الكلمة معربة.

لكننى أرجح أن الكلمة من أصل عربى، معتمدًا على هذه الأدلة:

أولًا: نصت المعاجم فى مادة (نور) على أنه يقال: نار الشخص من الشىء نفر، فيقال نارت المرأة من الريبة، ونار الظبىُ من صائده، فالفعل هنا لازم.

ويقال: نار فلانًا غيره إذا نفّره وأفزعه، فالفعل هنا متعد.

ويقال: نور فلان على فلان أى لبّس عليه أمره.

ويقال: ناور فلان فلانًا أى شاتمه.

فمن الممكن أن تكون كلمة مناورة مشتقة من نار الرجل الرجل، أو نار الصائد الظبى إذا نفره وأفزعه، لأن كلا من الفريقين المتناورين يحاول أن يطارد الآخر ويفزعه وينفره، فهى مفاعلة من نار.

ومن الممكن أن تكون مشتقة من نور فلان على فلان أى لبس عليه أمره وخدعه، لأن المناورة قائمة على التمويه والخداع.

وليس فى هذا الاشتقاق أوذاك تكلف ولا تعف.

ثانيًا: مادة نور أصيلة فى اللغة العربية، ومن معانى مشتقاتها النفرة والتنفير والحيلة والخداع، والشر والمشائمة، وكلمة مناورة بمعناها الحربى تحتمل هذا كله، وإذا كان العرب لم يستعملوها للدلالة على الاصطلاح الحربى المحدث، فإن هذا لا ينفى عروبتها، لأن استعمالها الحربى مجاز.

والقاموس المحيط وأساس البلاغة والمعجم الوسيط مادة نور لسان العرب

أما تشابه كلمة مناورة العربية والكلمة الإنجليزية Maneuver أو تشابهها والكلمة الفرنسية Manoevure

– مع ملاحظة أن أصلها لا تبنى معناها الأصيل العمل اليدوى ، ثم تطورت دلالة الكلمة إلى المعنى الحربى وإلى الخطة البارعة والخداع – فإن هذا التشابه أو التقارب فى النطق لا يرجح أن اللغة العربية نقلت كلمة مناورة بمعناها الحربى من لغة أجنبية ، كما لا يرجح أن اللغة الأجنبية نقلتها من العربية .

ثالثًا : فى اللغة العربية كلمات كثيرة جدًّا على وزن كلمة مناورة ، مشتقة من أصلها العربى ، وهو وزن قياسى فلماذا لا ترد كلمة مناورة أيضًا إلى أصلها العربى ؟

من هذه الكلمات .

١ – المشاورة : الاستشارة

أرجح أن أصلها شاور الرجل الخيل إذا راضها أوركبها عند عرضها على مشتريها ، أوإذا بلاها لينظر ما عندها ، أوإذا قَلَّبها ، وكذلك الأمة .

٢ – المحاورة : الجواب ومراجعة المنطق

لعلها من حار فى المكان أى تردد ، أومن حار بمعنى زكا ونما ، أومن حار الثوب إذا غسله وبيضه .

٣ – المساورة : المواثبة

لعلها من سار الرجل إلى الرجل وثب وسار .

وكذلك المحاولة ، والمداورة ، والموادعة ، والمدالاة ، والمباهاة ، والمناجاة ، والمناغاة ، والمناوأة ، والمهاوشة ، والمساهاة ، والمعاناة ، والمقاساة ، والمراءاة ، والموارة ، والموارية ، والمخابرة ، والمقابرة ، والمطايرة ، والمشايعة إلخ .

العكْس والانعكاس

١

ورد الفعل عكس فى المعاجم اللغوية لعدة معان، منها:
عكس الراكب الدابة، جذب رأسها إليه، لترجع القهقرى.
وعكس فلان على فلان أمره: رده إليه.
واعكسوا أنفسكم عكس الخيل باللُّجُم: ردوها.
وكلام معكوس : مقلوب.
والعكس: قلب الكلام ونحوه، ورد آخر الشىء إلى أوله.
وانعكس: مطاوع الفعل عكس.
ويتبين من هذه الأمثلة أن المعنى المشترك فيها هو الرد والقلب والإرجاع.

ثم جاء المعجم الوسيط فأضاف للكلمة ثلاثة معان أخرى،هى:

العكس (فى المنطق) تبديل طرفى القضية، لننشأ قضية أخرى مساوية للأولى فى الصدق والعكس (فى البديع) تقديم جزء من الكلام على جزء آخر عكسه، مثل: عادات السادات – سادات العادات.

والعكس (فى الهندسة والرياضة) أن تكون كل من النظريتين عكس الأخرى إذا كانت نتيجة كل منهما مقدمة للأخرى.

ولم يذكر المعجم الوسيط معنى الكلمة فى علم الضوء.

٢

ولكن الشائع فى علم الضوء وفى اللغة المتداولة أن لكلمة العكس معنى آخر. فما هذا المعنى فى علم الضوء أولاً؟ وما هو فى اللغة المتداولة ثانيًا؟

أما هذا المعنى فى علم الضوء فإنه الارتداد أو الرجوع، وهو يتضح من هذا

المثال: إذا قذفنا كرة على جدار بقوة فإنها ترتد إلينا، أى ترجع نحونا.

ولقد ردد ابن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٩ م) عشرات المرات فى كتابه «المناظر» الفعل عكس وانعكس بهذا المعنى، ولكن مؤلفى المعاجم الذين جاءوا بعده لم يدونوا ذلك المعنى، قال ابن الهيثم:

١ - «الضوء إذا لقى جسمًا صقيلًا فهو ينعكس عنه»[١]

٢ - «أجزاء ذلك الضوء.. تنعكس.. لكنها تكون بعد الانعكاس متفرقة مشتتة... وإذا كان الضوء المنعكس متفرقًا مشتتًا لم يظهر[٢].

٣ - «يتبين أن الضوء الذى انعكس عن المرآة هو الضوء الثانى... فعلى هذه الصفة يتبين أن الأضواء الضعيفة تنعكس أيضًا عن الأجسام الصقيلة»[٣].

٤ - «إن كل ضوء ينعكس عن سطح صقيل، فإن كل نقطة من السطح الصقيل الذى انعكس فيه الضوء ينعكس الضوء منها على خط مستقيم[٤].

٥ - أورد ابن الهيثم جهازًا سماه (آلة الانعكاس) أسهب فى وصف أجزائه المختلفة، وكيفية صنع كل جزء منها[٥].

وقد ردد علماء الضوء هذا التعبير بعد ابن الهيثم.

٣

هذا المعنى الذى عناه ابن الهيثم ومن جاء بعده فى علم الضوء هو المعنى نفسه الذى يعنيه الناس اليوم مثل قولهم:

١ - عكست الرحلة آثارًا طيبة على وجوه المشتركين فيها.

أى ردت إلى نفوسهم آثارًا حميدة واضحة تبين تأثيرها على وجوههم واتضح:

٢ - بعض التمثيليات تعكس شرورها على المجتمع.

أى ترتد شرورها إليه، وتؤثر فيه، ويتضح تأثيرها.

---

(١) ابن الهيثم ١٢٦ الدكتور نظيف

(٢) السابق ١٣٣

(٣) السابق ٣٤٠

(٤) السابق ٣٤٣

(٥) السابق ٣٤٦

٣ – عكست دقة التحقيق آثارها على وجوه المتهمين فاعترفوا واتضح فى وجوههم فاعلها أى ارتد عليهم تأثير التحقيق الدقيق.

٤ – انعكس على العمال إهمال رؤسائهم، فتهاونوا فى أعمالهم.

أى امتد إليهم إهمال الرؤساء، وأثر فيهم وتبين تأثيره فى إهمالهم.

٥ – انعكست ثورة مصر سنة ١٩١٩ على الاحتلال البريطانى، وتبين تأثيرها فى إلغائه الحماية البريطانية على الشعب، أى ارتدت على الاحتلال آثار الثورة فتقرب من الشعب.

٦ – ما زالت الحياة الأدبية والعلمية فى القرن الرابع الهجرى تنعكس آثارها على الأدب والعلم إلى اليوم.

أى أن آثار القرن الرابع ما زالت ترتد إلينا، وتؤثر فينا، وتتضح مظاهرها فى إنتاجنا الأدبى والعلمى.

٤

لهذا يصح أن نقول:

عكس الشىءُ الشىءَ: رده، أوردَّ تأثيره، أوأثر فيه، أواتضح تأثيره.

أما الفعل انعكس فهو مطاوع الفعل عكس، وهو يؤدى معناه.

فالعكس هو الرد، والتأثير، والتوضيح.

والانعكاس هو الارتداد والتأثر والاتضاح.

عَمْرة

يدور على الألسنة والأقلام قولهم: المنزل محتاج إلى عَمْرة، وكلفتنى عَمْرة السيارة كثيرًا، يريدون إصلاح المنزل أوالسيارة.

فهل نستطيع تصويب كلمة عَمرة بهذا المعنى ؟

إذا رجعنا إلى المعاجم وجدنا أن (العَمر) بالفتح هو الحياة، يقال عَمَّره الله بفتح الميم (وبتشديدها) أى أبقاه، والمصدر من هذا الفعل هو عَمْر، يقال عمره الله عَمْرًا.

فالعَمْرة هى العَمْر بزيادة تاء المرة عليها، لأن العمرة تضيف إلى عمر المنزل وحياته وإلى عمر السيارة وحياتها، عمرًا آخر، فتمد بقاءها مدة أطول.

لهذا يصح استعمال كلمة عمرة فى إصلاح المنزل والسيارة وغيرهما.

أنتج إنتاجًا

يتحرز بعض الناس من استعمال الفعل (أَنْتَجَ) مبنيًّا للمعلوم، ويؤثر الفعل الثلاثى (نُتِج) مبنيًّا للمجهول، فيقول مثلاً: نُتِجَ النسيجُ، ونُتِجَتْ الشاةُ.

ولكن المعاجم - وبخاصة المصباح المنير - أزالت ما يعترض الموضوع من لَبْس.

وذلك أنها تنص على صواب قولنا: نَتَج الرجلُ الناقةَ يَنْتِجُها من باب ضرب، أى تلقى ولدها وأصلح من شأنه، فالرجل ناتج، والبهيمة منتوجة، والولد نتيجة. والأصل فى هذا الفعل أن يتعدى لمفعولين، فيقال نَتَج الرجل الناقة بعيرًا، أى ولدها.

ويصح أن نبنى الفعل نتج للمجهول، فنقول نتجت الناقة ولدًا، إذا وضعته ونُتِجت الغنمُ أربعين سَخْلة.

ويجوز حذف المفعول الثانى اقتصارًا، فيقال: نُتِجت الشاةُ كما يقال: أُعْطِى زيدٌ. ويجوز أيضًا إقامة المفعول الثانى مقام الفاعل وحذف المفعول الأول، لفهم المعنى، فيقال: نُتِجَ الولدُ ونُتِجَت السخلةُ أى وُلدت، كما يقال: أُعْطِى درْهمٌ.

وقد يقال: نتجت الناقة ولدًا، بمعنى ولدت أوحملت.

ومن هذا قول الجاحظ: ثم نَتَج لهم الحسدُ عداوته (عداوة اليهود للنبى)[1].

والخلاصـــة :

١ - من حيث إنه يصح قولنا: نَتَج الرجلُ الناقةَ أى أولدها، ونَتَجت الناقةُ أى ولدت فيصح قياسًا على هذا أن نقول:

---

(١) رسائل الجاحظ ١ / ٣٤٦

نتج الفدان عشرة قناطير من القطن. ونتج المصنع ألف ثوب من الحرير.

ونَتَجت البئرُ مليون برميل من النِّفط.

قال الجاحظ: وإنما حمل اليهودَ على الكفر بمحمد ﷺ الحسدُ، ثم نَتَج لهم الحسدُ عداوته. (فصل ما بين العداوة والحسد من رسائل الجاحظ ١ / ٣٤٦).

٢ - كما يصح أن نضيف إلى الفعل (نَتَج) المتعدى همزة التعدية فنقول:

أَنْتَج الفدانُ عشرة قناطير من القطن.

وأَنْتَج المصنعُ ألف ثوب من الحريرِ.

وأنتجت البئر مليون برميل من النِّفط.

وأنتج العالم كتابًا جديدًا.

وهذا هو الجارى على ألسنة الناس وأقلامهم.

فكل من الفدان والمصنع والبئر والعالِم مُنْتِج.

وكل من القطن والحرير والنِّفط والكتاب مُنْتَج أو نتيجة.

وفى اللغة أفعال ثلاثية كثيرة متعدية، ومع هذا يصح أن تضاف إليها همزة التعدية والمعنى واحد، مثل:

شجاه وأشجاه، ومده وأمده، وحزنه وأحزنه، وسحته وأسحته، وجَنَبه وأجنبه.

منضـــدة

من أين جاءت كلمة منضدة ؟ وما ضبطها الصحيح ؟

في المعاجم أن النَّضَد : ما نُضد من متاع البيت ، أي وضع بعضه فوق بعض . والنَّضد أيضًا : السرير الذي ينضد عليه المتاع والثياب . ويقال : نَضَدَ الرجل المتاع يَنْضِده نَضْدًا ، أي جعل بعضه فوق بعض ، أو ضم بعضه إلى بعض .

نستطيع أن نشتق من الفعل نَضَد اسم مكان على وزن مَنْضَد ، أو مَنْضَدَة لما ينضد عليه المتاع ، أو الثياب ، أو الطعام .

ومن السهل تخصيص الكلمة بالطعام ، فالمنضدة هي الخوان الذي ترص فوقه الأطعمة والأطباق وأدوات الطعام .

ترسم فلان خطا فلان

من السهل أن نحكم بأن هذا التعبير صواب ، معتمدين على نصوص المعجمات .

ففيها : ترسم الرجل الرسم : نظر إليه .

وترسم الرجل المنزل : تأمل رسمه وتفرسه .

وترسم القارئ القصيدة : درسها وتذكرها وتبصرها .

وترسم الإنسان الشيء : تبصره وتأمله .

والمقصود من قولهم : ترسم فلان خطوات فلان لا يخرج على معنى من هذه المعانى ، فهو ينظر إلى خطواته ، ويتأملها ، ويتبصرها ، وهنا مجاز فيه انتقال من السبب إلى المسبب .

ولا غبار على هذا التعبير .

مُقَاوِل

يزدحم المجال الصناعى والزراعى والاقتصادى بطوائف من المختصين هم المقاولون الذين ينهضون بأعمال معينة لقاء أجر معين يدفعه لهم صاحب العمل.

وتشيع فى السوق وفى غيره كلمة مقاول ومقاولون ومقاولات.

وقد يتبادر إلى الخاطر أول وهلة أن الكلمة عامية أودخيلة، ولكنى أرى أنها عربية أصيلة، لأن فى اللغة: قال بيده أى أخذ، والمقاولة مفاعلة من هذا لأن كلا من المتعاقدين يأخذ بيد الآخر لتحقيق غرض معين.

وفى اللغة أيضًا قاوله فى أمر، وتقاولنا، أى تفاوضنا، والمقاولة بمعناها المحدث لا تكون إلا بعد تشاور وتفاوض واتفاق. وبذلك تكون الكلمة عربية سائغة مجازًا من باب إطلاق المسبب على السبب.

أمسية

ينطق أكثر الناس كلمة (أمسية) بياء مفتوحة غير مشددة . ويخطئ هذا النطق آخرون ، ويرون أنه لابد من تشديد الياء المفتوحة .

ولعل حجتهم فى اشتراط هذا التشديد أن فى اللغة كلمات كثيرة على هذا الوزن كلها مشددة الياء ، مثل :

أُلْهِيَّة : ما يتلهى به الإنسان ، وهى أيضًا الأُلْـهوَّة .
والأُمْنِيَّة : وهي ما يتمناه الشخص .
الأُحْجِيَّة : والأُحْجُوَّة ، وهى مخالفة معنى الكلمة للفظها .
والأُثْفِيَّة : الحجر الذى توضع عليه القدر .
والأمسية : المساء .

ولكننا نجد فى المعاجم كلمة (أغنية) بياء مشددة مفتوحة وبياء مفتوحة غير مشددة كما نجد كلمة مرثية بياء مشددة وغير مشددة .

فما الذى يمنع من قياس كلمة أمسية على كلمة أغنية فتخفف ياؤها ؟

كلمة (عظمة)

١

يستعمل كثير من الكتاب كلمة (عَظَمة) على وزن شجرة للدلالة على الفخامة والضخامة والعلاء.

لكن هذا المعنى فى حاجة إلى الرجوع إلى المعاجم.

١ - فى المعاجم الثلاثة لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس دلالات عامة للكلمة من الفعل عَظُم (على وزن صَغُر) عِظَما وعَظامة، فالعظمة هى الضخامة والقدرة والكِبَر والقوة والتعظيم والتقدير، والعظيم والعُظام هى الكبير.

ويقال: عظَّمه تعظيمًا، وأعظمه إعظامًا، واستعظمه استعظامًا، أى فخَّمه وكبَّره ورآه عظيمًا، وعدَّه عظيمًا.

ودعوى فرعون عظيمة من العظائم أى كبيرة من الكبائر.

والمعاظم هى الحُرَم والحقوق المستعظمة.

أما كلمة (عَظَمة) فإنها تدل على الكبرياء والزهو والنخوة، شأنها شأن عُظَّامة (على وزن رمانة) وعظموت (على وزن جبروت).

لهذا قالوا: إذا وصف عبد بالعظمة كان ذمًّا له، لأن العظمة الحقيقية لله عز وجل[1].

٢ - وردت كلمة تعظيم وإعظام والفعل أعظم فى كلام للجاحظ، منه:

... «كرضا من تأذن له لما يمنحه من التكريم، ويحويه من التعظيم، فإن المنع عند الممنوع فى لين المقالة يكاد يكون كالنيل عند العظماء فى نفع المنالة»[2].

---

(١) لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس مادة عظم.

(٢) كتاب الحجاب ٢ / ٣٤ من رسائل الجاحظ.

ومنه :

... « ويُلْقَى أبدًا بالإعظام، ويُفَدَّى إذا دُعى، ويُحيَّا بطرائف الأخبار»[1].

٣ - وفى القرآن الكريم آيات كثيرة دلت بكلمة عظيم على الشىء الفخم الباهر الكبير وعلى الشىء الذى تعجز العقول عن إدراكه، ولم ترد كلمة عظمة.

من هذا قوله تعالى: ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون ﴾.

وقوله سبحانه : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ لهم عذاب عظيم ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ كالطود العظيم ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾.

٢

لكنى أوثر أن نتوسع فى دلالة كلمة عظمة، فلا نحصرها فى الكبرياء والزهو والنخوة، ولا نستعملها ذمًّا للإنسان كما ورد فى بعض المعاجم.

ولى على هذا الإيثار دليلان اثنان:

أما أولهما فهو أن فى لسان العرب وتاج العروس: لفلان عظمة عند الناس أى حرمة يُعَظَّم لها.

فالعظمة إذن تقدير وقدر ومكانة وقيمة ومزايا تستوجب التعظيم، فلا كبرياء هنا ولا ذم، وهذا هو الذى نريده حينما نقول: عظمة الرسالة، أو عظمة الخطة، أو عظمة الاختراع، أو عظمة الأخلاق.

---

(١) كتاب القيان ٢/ ١٧٨ من رسائل الجاحظ.

وأما ثانى الدليلين فهو أن كلمة عظمة ليست مصدرًا، لأن الفعل عَظُم مصدره العِظَم والعَظَامة، وإنما هى اسم على هذا الوزن مثل الرَّدَهة والأَسَلة واليَرَقة والسَّمكة والنَّصَفة والحَرَكة والصَّلَعة والعَقَبة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكملة مادة لغوية

فلَّس

جاء فى المعاجم : فلَّس القاضى فلانًا أى حكم بإفلاسه[1]، نستطيع أن نضيف إلى هذا المعنى معنى آخر هو استنفاد النفقات والمطالب ثروة صاحب المال، فنقول فلَّسَت النوازل فلانًا، وفَلَّسَتْ الصفقة الخاسرة التاجر، وفَلَّسَتْ مظاهر الترف فلانًا.

وهذا وأمثاله مأخوذ من قول الجاحظ : « كم من رجل تاجر مستور قد فلَّسَتْه امرأته حتى هام على وجهه، أو جلس فى بيته[2] ».

والفرق واضح بين تفليس القاضى وتفليس النفقات لفلان ؟

---

(١) الأساس والقاموس والمعجم الوسيط مادة فلس.

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١٠٢ م طبعة الأستاذ عبد السلام هارون رسالته مفاخر الجوارى والثلمان.

استكمال مادة لغوية

مُنَقْرَس

ورد فى المعاجم اللغوية أن النقرس داء يصيب المفاصل، وهو ما كان يسمى داء الملوك[1].

ونستطيع أن نشتق من كلمة (النقرس) فعلا، فنقول نقرس البرد فلانًا أى أصابه بالنقرس، فهو مُنَقْرَس.

ويعزز هذا قول الجاحظ: «ألا ترى أنى مُنَقْرَس مسوج[2]».

---

(١) لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس والمعجم الوسيط مادة نقرس.

(٢) رسائل الجاحظ ٣/ ١١٤. تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون.

المسح بمعنى التعقيب والكشف

تتردد في لغة الصحافة كلمة المسح في نحو قولهم:

١ - مسح المنطقة لتعقب أوكار المجرمين.

٢ - مسح إشعاعي عن المعادن والبترول والمياه الجوفية بالصحراء الغربية.

٣ - مسح شامل للأسعار في السنة الأخيرة.

والذي في معاجم اللغة: المسح كالمساحة: الزرع، يقال: مسح الأرض مسحًا ومساحة زرعها، وهو مساح.

لكن الجمل الثلاث تدل على معان أخرى كالبحث والتنقيب والكشف والتعقيب والفحص، وهذه المعاني وثيقة الصلة بالمعنى اللغوي الأصيل، ففي كلمة المسح في الاستعمال المحدث توسع في الدلالة، لعلاقة المشابهة بين المسح بمعنى الذَّرْع وبين المسح بمعنى التعقيب والتنقيب والكشف والفحص، فهي إذن صحيحة الاستعمال.

المراجع

١ – أخبار قبط مصر المقريزى . طبعة جونتجن ١٨٤٥ م .
٢ – الاستيعاب فى معرفة الأصحاب . ابن عبد البر . مطبعة نهضة مصر .
٣ – الإصابة فى تمييز الصحابة . ابن حجر العسقلانى . مطبعة نهضة مصر .
٤ – إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون المعروف بالسيرة الحلبية برهان الدين الحلبى .
٥ – تاج العروس . الزبيدى .
٦ – تاريخ الأقباط فى مصر . ذكى شنوده .
٧ – تاريخ الأمة القبطية . سليم سليمان . مطبعة التوفيق ١٩٣١ .
٨ – تاريخ الرسل والملوك . المطبعة الحسينية بمصر .
٩ – تاريخ الكتاب المقدس . الدكتور يوسف منصور .
١٠ – الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة . مطبعة ١٩٢٣ .
١١ – السيرة النبوية . ابن هشام . تحقيق السقا وزميليه .
١٢ – سيرة الآباء البطاركة . أبو البشر ساويرس أسقف مدينة الأشمونين (الملقب بابن المقفع) بيروت سنة ١٩٠٧ م .
١٣ – صبح الأعشى . القلقشندى . مطبعة دار الكتب المصرية .
١٤ – صحيح البخارى . المطبعة الأميرية ١٣١٤ هـ .
١٥ – صحيح مسلم . دار إحياء الكتب العربية (١٣٧٥ هـ – ١٩٥٥م) .
١٦ – الفصل فى الملل والأهواء والنحل . ابن حزم .
١٧ – قصة الكنيسة القبطية . إيريس حبيب المصرى .
١٨ – القاموس المحيط . الفيروزابادى .
١٩ – الكامل فى التاريخ . ابن الأثير مطبعة بولاق ١٣٠٣ هـ .
٢٠ – لسان العرب . ابن منظور .

٢١ – مجموعة الوثائق النبوية والخلافة الراشدة محمد حميد الله الحيدرأبادى .
٢٢ – محاضرات فى النصرانية . محمد أبو زهرة .
٢٣ – الملل والنحل الشهرستانى .
٢٤ – نظم الجوهر . سعيد بن البطريق . مطبعة اليسوعيين ١٩٠٦ م .
٢٥ – the oxford dictonary of the chisron church

فهرس

صفحة

صفحة

رقم الإيداع		١٩٨٤ / ٥٨٢٩
الترقيم الدولى	١-١٠٨١-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٣ / ١٩٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب مجموعة من البحوث اللغوية التى قدمها المؤلف القدير فى مؤتمرات مجمع اللغة العربية منذ سنة ١٩٧٤م إلى سنة ١٩٨٢م .

والكتاب يتناول الألفاظ اللغوية فى قسمين كبيرين : قسم يتعلق بألفاظ وأساليب فى القرآن الكريم ، وخطاب الرسول الكريم إلى هرقل ، وقسم يتصل بالكتابات المعاصرة التى يظن بأنها لا تتصل بنسب إلى الفصحى ..

والكتاب شائق فى موضوعه .. يفتح الباب أمام مزيد من البحوث التى تبسط اللغة إلى القارئ المعاصر .

ص ١٦٠

٢٠٠٥/٠١